



3.6.2016

جان إشنوز

# راقيل

رواية



ترجمها عن الفرنسية  
وليد السويركي

جان إشنوز

# راقيل

رواية

ترجمها عن الفرنسية  
وليد السويركي

مراجعة  
كاظم جهاد

راقیل

Twitter: @ketab\_n

PQ2665.C5 R3812 2016

Echenoz, Jean, 1947-

[Ravel]

رافيل : رواية / تأليف جان إشنوز ؛ ترجمة وليد السويركي ؛ مراجعة  
كاظم جهاد.. ط. 1. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016.  
148 ص. ؛ 11 × 18 سم.

ترجمة كتاب : Ravel

تدمك : 0-662-13-9948-978

1- القصص الفرنسية- القرن 21.

أ- سويركي، وليد. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي :

Jean Echenoz

Ravel

© 2006 by Les Éditions de Minuit



كلمة  
KALIMA

[www.kalima.ae](http://www.kalima.ae)

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: +971 2 6215 300، فاكس: +971 2 6433 127



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة  
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعتبر وجهات  
النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه  
التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى، بما فيه حفظ  
المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

# ديباجة

عندما أصدر جان إشنوز Jean Echenoz رواية الأولى «توقيت غرينيتش» *Le Méridien de Greenwich* في 1979، كانت الساحة الأدبية الفرنسية تعيش تساؤلات حادة عن «نهاية فنّ الرواية» وعن مستقبل «الرواية الجديدة»، ذلك التيار الذي أطلقه رجيل من الكتاب يقف في طليعتهم آلان روب غرييه وناتالي ساروت وكلود أولييه. كان ممثلو هذا التيار قد عملوا على إبطال السرد والحبكة وإبداهما بالرّصد المتجرّد من كلّ انشغال عاطفيّ أو استقراء نفسانيّ أو تصعيد مأساويّ. وأمام الباب شبه المسدود الذي انتهت إليه الكتابة الروائيّة، ونشوء الحاجة إلى بديل فنيّ، انخرط إشنوز، هو وباقي روائيّي ثمانينيات القرن العشرين وسابقيهم المباشرين من أمثال لوكليزيو

وموديانو، انخرطوا في مغامرة العودة إلى الرواية بمعناها الأصلي، مكتوبةً بوسائل جديدة، وسعوا إلى ردّ الاعتبار للتخييل والسرد.

هذه العودة تجد تجسيدها في الثلاثية السردية التي نقدّمها لقراء هذه السلسلة، والتي يشكّل هذا الكتاب نصّها الأوّل. ثلاثية تُقرأ كتبها منفصلةً ولكلّ منها استقلاله الخاصّ. ينطلق فيها الكاتب من سير بعض الأعلام، ويضع لهم رواياتٍ سيرة أو سيراً روائيةً تختلف عن تلك التي يضعها كتاب السير بمعناها الاصطلاحيّ، والتي تظلّ قريبة من عمل المؤرّخين. فالخيال الأدبيّ يأتي هنا ليزيد إضاءة بعض التفاصيل والسّمات والأحداث، ويعتم على بعض آخر منها تعبيراً دالّاً، كما في رواية السيرة الذاتية أو كتابة الذات التي مارسها باتريك موديانو وآخرون. كما تمتاز روايات إشنوز السيرية هذه بوجازتها وكثافتها وتركيزها على عدد من الوقائع والملامح تستند في تناميها المتدرّج على نظام جوّانيّ، فيه يكمن لغز الشخصية موضوع الكتابة. لغز يسلّط عليه الكاتب إضاءات جانبية أو خفية ويحرص على عدم إماطة اللّثام عنه إماطة كاملة،

ليظلّ محتفظاً بفرادته وبهالة من السريّة الضروريّة.

وسواء في روايات السّير هذه أو في أعماله الأخرى، يحرص الكاتب على الرّصد الموضوعي، ورثه من تيار «الرواية الجديدة»، وينعشه بإجراءات الرواية التقليديّة التي عمل جيل العائدين إلى السّرد على الإفادة منها وابتعائها بشكل جديد. هذا الرصد الموضوعيّ يسمح له بالابتعاد عن التأويلات النفسانية المغالية وعن العاطفيّة الصارخة ويتيح له العمل بشيء من الدّعابة والمحاكاة الساخرة أحياناً. ثمة حقاً ابتسامة ملؤها تعاطف تميّز لغة السّارد الذي يتأمّل في روايات إشنوز مسارات «أبطاله» وانجرافاتهم وراء قوى المصير.

يتميّز إشنوز أيضاً بمحبّة الموسيقى، موسيقى الجاز بخاصّة، التي مارسها هو نفسه هاوياً في العزف على «التشيلو»، وداعبه الحلم في تكريس قدراته لها، ثمّ عمل على الإفادة منها في أسلوبه الروائيّ، لا سيّما في معالجة تقطيع فقرات نصّه وعباراته، وفي تفكيك بنية الرواية وتطوير الكلمات، وقبول مساحات من الصمت أو البياض وشيء من «النشاز» المحسوب أو المتعمّد.

فالرواية تنتج لديه من تصادم معانيات وتفاصيل، ومن ولع بالهيام والترحال يُرَجَّح أن يكون ورثه من فلسفة جيل دولوز Gilles Deleuze، الذي يجهر الكاتب بقربه منه. لقد عملَ دولوز، كما هو معروف، على لفت النظر إلى الحركة في الأماكن، من ترحال ويداوة وهروب فعال، وأسس لما دعاه هو نفسه «فلسفة جغرافية». أما إشنوز فهو القائل: «لئن كان البعض يكتبون روايات تاريخية فأنا أهوى كتابة روايات جغرافية». هي إذن عبقرية المكان ما فتئ يطاردها، دافعاً بأبطاله من أقصى العالم إلى أقصاه.

هو نفسه ترحل بين مناحي المعرفة والفنون. ولد في السادس والعشرين من ديسمبر 1947 في مدينة أورانج Orange في الجنوب الشرقي من فرنسا، لأبٍ طبيبٍ نفسيٍّ وأمٍّ رسّامة. ولدى إنهائه الدراسة الثانوية، بدأ بدراسة الكيمياء، ثم انعطف إلى علم الاجتماع، فالموسيقى، ثم عقد العزم على ممارسة الكتابة السردية.

نشر إشنوز حتى الآن ثماني عشرة رواية، وكتب للسّينما عدداً من السيناريوهات. في أحد حواراته الصحافية، صرّح أنّه، بفضل قراءة ألفريد جاري، اكتشف أنّ «شاكلة



السرّد تضارع الحبكة في الأهميّة إن لم تكن تفوقها». كما أكد على ما يدين به لقراءة غوستاف فلوبر وريمون كونو وجان باتريك مانشيت (الأولان غنيان عن التعريف، والثالث هو أحد أهمّ كتاب الرواية البوليسيّة الفرنسيين في العقود الأخيرة من القرن العشرين) قائلاً: «إنني أتمنّى لدى هؤلاء الكتاب الثلاثة تلاحبهم بالمسافة وبالمشظور والعاطفة، وتلك الغشامة الظاهرية والاختلال الزائف للتوازن في بناء العبارة، والإيقاع القائم على المناوبة بين التسارع والهدأة، والألم الكبير الممزوج بسخرية قصوى». أمّا عن كتابه هذا، الذي يشكّل أنموذجاً دالاً على أسلوبه المتقشّف والباروكي في آنٍ معاً، فيه يقدم بورتريةاً مكثفاً للمؤلف الموسيقيّ الفرنسيّ الشهير موريس رافيل Maurice Ravel، مركزاً على السنوات العشر الأخيرة من حياته. ولد رافيل في سيبور Ciboure الواقعة في منطقة الباسك الفرنسيّة، في 7 مارس 1875، وتوفّي بباريس في 28 ديسمبر 1937. تآليفه الموسيقيّة ذائعة الصيت، وأغلبها مصنّف بين كبار الأعمال، وضعت في مصاف أهمّ مجايله من الفرنسيّ ديوسي (الذي خلفه هو في ريادة الموسيقى

الفرنسية لدى وفاته في 1918) إلى الفرنسي الآخر بولنك والروسي سترافنسكي والمجري بارتوك والأمريكي غيرشوين. ومن أهم أعمال رافيل وأشهرها «دافني وكلويه» و«الكونشيرتو في سلم الصول للأوركسترا والبيانو المكتوب لليد اليسرى»، وأغانيه الثلاث المعنونة «من دونكيخوته إلى دولثينا»، و«الكونشيرتو في سلم الصول»، وخصوصاً «البوليرو» الشهير. وفيها كلها أعرب، باعتراف النقاد، عن قوة فكرية عالية وفي الأوان ذاته عن حساسية مرهفة تلتقط أخفى حركات الشعور الإنساني. ولكن اعتباراً من صيف 1933 أصيب الفنان بوهن عصبي أثر سلبياً على ذاكرته وحركاته، يرجعه بعض الأطباء إلى مشاكل عانى منها من قبل، أرق مستحوذ بخاصة، ويرده البعض الآخر إلى رضة دماغية قد يكون تسبب بها حادث اصطدام التاكسي الذي كان يقله بباريس في 8 أكتوبر 1932. وبسبب هذا الوهن، الذي شوش ذاكرته وأبطأ حركته، مع بقاء فكره سليماً، بقي يراكم المشاريع ولا يقوى على إنجازها. وقد اتضح أنه كان يريد في أحدها وضع عمل موسيقي مستوحى

من «ألف ليلة وليلة». بإيجاز، كان موسيقياً مقللاً ولكن أعماله في مجملها عالية الأهمية وبعيدة الأثر، تميزت بتفرد كبير، وفي الألوان ذاته بالانفتاح على عديد المصادر الفنيّة وألوان الموسيقى، من القرنين السابع عشر والثامن عشر الفرنسيّين (كوبران ورامو بخاصّة) إلى موسيقى الجاز الأمريكيّة السوداء والموسيقى الإسبانيّة.

من هذه الحياة المجيدة، على وجازتها النسبيّة (اثنين وستين عاماً)، أثر الروائيّ معالجة السنوات العشر الأخيرة، لأنّها بالفعل حافلة بكلّ تناقضات حياة الجسد والروح. الهشاشة التي تتخفى وراء العبقرية وتغذيها، ولحظات الوجود العاديّ وما يتخلّلها من سأم متسلّط. إيهاءات الفنّان وحركاته غير المتهاسكة دوماً، هو الذي كان قصير القامة، مولعاً بالأناقة، بفاخر الثياب والعطور والدخان، والصدفة الأليمة، حادث السير الذي طبع بالثقل سنواته الأخيرة وتضافر مع آلام سابقة ليمنع المؤلّف الموسيقيّ الكبير من إيجاد شكل لحدوسه الفنيّة، بقيت على هيئة مشاريع وسوانح وأطياف تداعب خياله وتورّقه. أثر الأدوية والاعتلال على روح قويّة طامحة.

الحين الدائم إلى الوطن الأم (منطقة الباسك الفرنسية) وعزلة الفنان المحتفى به أتى حلّ. الأداء المتهوّر الذي كان يقوم به قائد الأوركسترا الإيطالي توسكانيني لـ «بوليرو» رافيل، وتصرف العازف النمساوي الأقطع (بسبب الحرب) بول فتغنشتاين، أخي الفيلسوف الشهير لودفيغ فتغنشتاين، بالكونشيرتو في سلّم الصّول للأوركسترا والبيانو المكتوب لليد اليسرى، الذي كتبه رافيل بطلبٍ منه أصلاً، وأمام هذا كلّ صبر الفنان الكبير ويقينه من أنّ عمله منذور للأجيال القادمة وآته، في جوهره، لا يُمسّ. محنة الذاكرة واضطراب حركات الفنّان الجسدية، يسهب الكاتب في وصفها ببراعة وحياء، في حين يقدّم لنا موت الفنّان في سطور ختامية قليلة، متسارعة، تضعنا في مواجهة وقعه الصاعق ومفاجأته، موت مبكر، وعن اعتلال، موت غاشم لا رادّ له.

هذا كلّ ترافقه إحاطة بأجواء الفترة التاريخية، بوجوها الفنية وبواخرها وقطاراتها ومقاهيها، وطقوس الوداع وتناقضات المزاج الفنيّ، وتناوب ساعات التكريس المهيب وأفطع لحظات العزلة (تُفتّح الرواية

مثلاً بصفحة مفاجئة تعبر عن هشاشة، وعن حاجة للدفء من خلال وصف لحظة الخروج من الحمام). وهناك أيضاً وصف اللّحظة الإبداعية وسرّ البراعة ولغز النجاح الفني، يأتي من حيث لا يتوقع الفنّان نفسه، كما في الصفحة الأثيرة المكرّسة لوصف ولادة «البوليو»، والتي نترك للقارئ الوقوف عليها بنفسه في موضعها. ومن العلامات الأخرى على تقشّف هذه الكتابة أو تكثيفها حتّى على صعيد الشكل أنّ الحوارات تأتي «مدسوسة» داخل السرد. يعرف القارئ بداية الأقوال ونهايتها وعودة السرد من خلال نبر الكتابة لا غير.

قد يكون أخيراً من المجدي أن نختم بهذه العبارات، صرّح بها الكاتب للصحافة الأدبية بخصوص كتابه هذا: «أردت أن أبقى بأقرب ما يمكن من رافيل، وفي الأوان ذاته إخضاعه لمعالجة روائية، بمقاربتة كشخصيّة خياليّة». وعن تصريحات رافيل في روايته، قال إشنوز: «عندما أمنح رافيل الكلام في هذا الكتاب فأنا أستخدم على الدوام أقوالاً له، عثرتُ عليها في شهاداتٍ من عرفوه عن قربٍ وفي مراسلاته. فالكتاب كلّه مبنيّ على معطيات

فعلية، فأنا لم أشأ أن أضع على لسانه أقوالاً متخيّلة. بل رأيت أنّ ثمة جدوى أكبر في استخدام بعض العناصر الواقعية استخداماً روائياً، ولكن لم أكتب نصّ سيرة».

المراجع

كاظم جهاد

يَشْعُرُ المرءُ أحياناً بالذنب لخروجه من حوض الاستحمام. فمن المؤسف، بدايةً، أن يغادر الماء الفاتر ذا الرغوة - حيث يعانق الشَّعْرُ المتساقط الفقائيع بين خلايا الجلد المدعوك- إلى الهواء المفاجئ في بيتٍ سيئ التدفئة. ثم، إذا كان المرء قصير القامة، وكانت حافة الحوض ذي الأقدام المَخْلَبِيَّة، مرتفعةً، فإنه يشقّ عليه دوماً تحطّيه للوصول، بقدم مترددة، إلى بلاط الحمام الزلق. ولذا يحسُن التصرّف بحذر، لكي يتجنّب المرءُ إصابة منطقة ما بين الساقين أو خطر الانزلاق والسُّقوط. بالطبع، من الممكن حلّ هذه الورطة بصنع حوض استحمام على المقاس، ولكنّ هذا يقتضي تكاليف قد تفوق كلفة التَّدْفِئَة المركزية، التي زُوِّد بها البيت حديثاً، ومع ذلك ظلّت غير كافية.

وقد يكون الأفضل أن يظلّ المرء غاطساً في الحوض حتى الرقبة، طيلة ساعات، لا بل على الدوام، مديراً الصنبور بقدمه اليمنى، على نحو متقطع، ليزيد الماء الساخن قليلاً، ويضبط بذلك منظم الحرارة، ويحافظ على محيط سلوي<sup>(1)</sup> مناسب.

ولكنّ الأمر لا يمكن أن يدوم طويلاً، فالوقت يضيق كالعادة. وستصل هيلين جوردان مورانج<sup>(2)</sup> خلال أقلّ من ساعة. انتزع رافيل نفسه من حوض الاستحمام، ثم ارتدى، بعد أن جفّ جسده، بُرنس حمام رمادياً بلون اللؤلؤ، ومُلتفّاً به، نظّف أسنانه بفرشاته ذات المفاصل، وحلقّ ذقنه دون أن يترك ولو شعرة، ثم سرح شعره دون أن يهمل جعدةً واحدة، وتنفّ حاجباً نافرماً برز في الليل كأنه قرنٌ استشعار. وبعد ذلك، تناول من على منضدة الزينة حقيبةً فاخرة لمستلزمات العناية بالأظافر، مصنوعة

---

(1) المقصود السائل الغذائي الذي يوفر الحماية للجنين داخل الكيس الأمنيوتي في رحم المرأة. (جميع الحواشي وضعها المترجم).

(2) Héléne Jourdan-Morhange (1888-1961): عازفة كمنجة فرنسية، ارتبطت بعلاقة صداقة متينة مع موريس رافيل وقد أهداها عمله «سوناتا للكمنجة» سنة 1927. أما هي فقد كتبت سيرته في مؤلّفين.



من أجود جلود الخراف، بسطح كجلد السحالي، ومبطنة بالحرير، وُضعت بين فُرَش الشعر والأمشاط العاجية، وزجاجات العطر، واغتتم أثر الماء الدافئ في نظرية أظافره كي يقلمها من دون ألم بالطول المناسب. ثم ألقى نظرة عبر نافذة الحمام المهيأة بفنّ مُتقن على الحديقة التي اكتست بالأبيض والأسود أسفل الأشجار العارية: العشب القصير ميت، ونافورة الماء عطّلها الجليد. إنه يوم من أواخر أيام عام 1927. الوقت مبكر. كان قد نام نوماً مضطرباً وغير كافٍ كما في كل ليلة، فكان مزاجه معكراً كما في كل صباح، حتى إنه لم يدرِ ماذا يلبس، ما زاد مزاجه تعكراً.

صعدَ درجَ بيته الصغير ذي البناء المعقد: ثلاثة طوابق من جهة الحديقة غير أنه لا يرى من الخارج سوى طابق واحد. من الطابق الثالث الواقع على مستوى الشارع مباشرة، ألقى رافيل نظرةً فاحصة عبر نافذة في الممر ليخمن سُمك الثياب التي يرتديها المارة، فيعرف بذلك ما ينبغي عليه ارتداؤه. ولكن الوقت كان مبكراً جداً بالنسبة لبلدة مونفور-لاموري. لم يكن هناك أحدٌ ولا شيء،

سوى سيارة بيجو 201 صغيرة، رمادية وقديمة بعض الشيء، متوقفة أمام بيته وفي داخلها هيلين. لا شيء آخر في العالم يُرى. كانت السماء المكفهرة تكتنفُ شمساً شاحبة. ولا شيء يُسمع أيضاً في أيّ مكان. كان الضمت مخيماً في المطبخ، بعد أن صرف رافيل، الذي كان يتأهب للسفر، السيدة ريفلو. كان متأخراً كالعادة، فأخذ يرغي ويزبد وهو يشعل سيجارة، فيما توجب عليه، في الوقت ذاته، أن يرتدي ملابس بسرعة ملتقطاً ما وقع منها بين يديه بالصدفة. ثم إنّ توضيب أمتعته هو ما أثار حنقه، مع أنّ الأمر لا يتعدى تعبئة صندوق صغير، إذ كانت مجموعة حقائبه قد سبقته إلى باريس قبل يومين. وبعد أن تجهّز، شرع رافيل في تفقد بيته؛ تأكد من أنّ النوافذ جميعها مغلقة، وأنّ باب الحديقة مُوصدٌ بالقفل، والغاز في المطبخ مقطوع، وعدّاد الكهرباء في المدخل مفصول. إنّه بيت صغيرٌ حقاً، تنتهي جولة تفقده سريعاً، لكنّ المرء لا يكتفي أبداً من التدقيق. لذا، تأكد رافيل للمرّة الأخيرة من أنّه قد أطفأ سخان المياه قبل أن يخرج، مُدمماً مرّة أخرى بغضبٍ وبصوتٍ خفيضٍ حين فتح الباب فباغت الهواءُ

الثلجيُّ شعره الأبيض، الذي كان ما يزال رطباً ومسرّحاً إلى الورااء.

أسفل الدرجات الثماني الضيقة، كانت تصطف في الشارع المنحدر سياراً البيجو 201 في وضع الفرملة، وخلف مقودها ترتجف هيلين، وهي تدقّ عليه بأطراف أصابعها التي برزت مكشوفةً من قفازٍ معصميٍّ من الصوف المحبوك، ماركة «بوتون دور». هيلين امرأة على قدرٍ من الجمال، ولعلّها تشبه أوران ديمازيس<sup>(1)</sup>، لمن يتذكّرها. ولكن في تلك الأيام، كان يمكن أن يكون لعددٍ غير قليلٍ من النساء شيء من ملامح أوران ديمازيس. كانت هيلين ترتدي تحت معطفٍ من فرو الظربان الأمريكي - وقد رفعت ياقته - فستاناً بصدارٍ طويل، ذي خصرٍ خفيضٍ يجعله يبدو مثل سترةٍ، فيما التنورة مزركشة بشريطٍ تتنظّم فيه حلقاتٌ قرنيّة الشكل، وذلك كلّه بقماشٍ حريريٍّ ممّوجٍ بدرجة من اللون المشمشيِّ، ومزيّنٍ برسومٍ نباتيّة. جميلٌ جداً. وكانت تنتظر. وليس منذ وقتٍ قصير.

(1) Orane Demazis ممثلة فرنسية (1894-1991)، اقترن اسمها بمارسيل

بانيول Marcel Pagnol زوجة وبطلة لأهم أفلامه: «ثلاثية مرسيليا» La

. *Trilogie de Marseille*

لقد مضى أكثرُ من نصف ساعةٍ وهيلينُ تنتظر في ذلك الصّباح المُتجمّد بين عيدين رافيل الذي ظهر أخيراً وفي يده حقيبة. كان يرتدي بذلة رماديّة غامقةً، تحت معطف قصيرٍ بلون الشوكولاتة على قدرٍ من الأناقة هو الآخر، مع أنّه قديم الطراز وخفيف ربّما، بالنسبة لذلك الفصل من السّنة. بعكّازته المعلّقة في ذراعه، وقفّازيه المزدودين على معصميه، كان يبدو مثل مُراهِنٍ أنيق، وبالأحرى مثل مالكٍ خيولٍ في مقصوراتٍ سباقٍ ديان<sup>(1)</sup> أو في ساحة وزن الفرسان في مضمار إنغان<sup>(2)</sup>، مربّي خيلٍ يهتمُّ بمُهره الحوّليّ أقلّ من اهتمامه بتمييز ثيابه عن الجاكتات الرماديّة الكلاسيكيّة أو السُترات المستقيمة من الكتّان. ركبَ برشاقةٍ سيّارة البيجو وجلس متنهّداً. أمسك بثنياتٍ بنطاله عند الركبتين وشدّها سريعاً ليتجنّب انتفاخها. حسناً! قال وهو يفكّ أوّل أزرار معطفه، أظنّ أنّه يمكننا أن ننطلق. استدارت هيلين نحوه وتفحّصته سريعاً من أعلى رأسه حتّى أخص قدميه: كان موقفاً، كعادته دوماً، في مواءمة

(1) سباق خيل فرنسي شهير يقام في مضمار شانتيي منذ 1843.

(2) بلدة بالقرب من باريس، يقام فيها سباق شهير للخيول.

جورييه القطنيّين ومنديله الحريريّ مع ربطة عنقه.

كان في وسعك، ربّما، أن تدعني أنتظرُ في بيتك عوض الانتظار في السيارة، جازفتُ بالقول وهي تدير المحرّك، لقد رأيتَ برودةَ الطقس. ردّ رافيل بأنّه كان عليه أن يُرتّب البيت قليلاً قبل الخروج وأن ذلك لم يكن هيئناً؛ إذ تعيّن عليه أن يذرع المكان كلّهُ، ناهيك عن أنّه لم يغمض له جفن طيلة اللّيل كالعادة، وقد اضطرّ لأن ينهض مع الفجر، وهو يكره ذلك، وهي تعرف كم يكره ذلك. مثلما تعرف كم هو ضيقُ بيته، وهو ما كان سيزعجها. ومع كلّ هذا، قالت هيلين، فقد كذتُ أصاب بالبرد بسببك. هيّا، يا هيلين! قال وهو يشعل سيجارة غولواز، في أيّ ساعة بالضبط ينطلقُ القطار؟

الحادية عشرة واثنتا عشرة دقيقة، أجابت وهي تنطلق. اجتازا مونفور لاموري، المقفّرة والمتجمّدة مثل طبقةٍ جليدية يغمرها في الوقت ذاته ضوءٌ ساطع. قبل الخروج من مونفور لاموري، عبّرا بالقرب من الكنيسة، من أمام بيت بورجوازيّ كبير، لإحدى نوافذه في الطابق الأوّل شكلٌ مثلثٌ أصفر. قال رافيل إنّ صديقه زُغيب

قد استيقظ مبكراً، على ما يبدو. ثم بلغا فرساي، فسلكا  
جادة باريس، وحين ترددت هيلين عند أحد المفارق  
تاركة السيارة تنحرف قليلاً، احتج رافيل بعض الشيء:  
كم هي سيئة قيادتك! إن أخي إدوار يقود السيارة أفضل  
منك بكثير. في رأيي، لن تنجحي أبداً في هذا. عند مدخل  
سيفر، داست هيلين على الفرامل فجأة حين لمحت على  
الرصيف رجلاً يعتمر قبعة من لبادٍ ويتأبط ما بدا لوحة  
كبيرة مغلّفة بورق جرائد. تركت هيلين الرجل يعبر، ليس  
لأنه قد بدا عليه أنه ينتظر فحسب، بل تحديداً كي تتمعن  
في رافيل، وقد بدا وجهه أكثر حدّةً وشحوباً ونحولاً من  
أي وقت مضى؛ فحين أغمض عينيه للحظة، بدا وجهه  
أشبه ما يكون بقناعه الجنائزي. هل أنت بخير؟

أجاب أنه بخير وأن الأمور ستكون على ما يرام؛ لكنّه  
ما زال يشعر بإرهاقٍ شديد. وبعد أن طلب منه طبيه إجراء  
سلسلة من الفحوص، أراد أن يخضعه للعلاج بالمنشطات  
استعداداً لهذه الرحلة، وقد أزعجه رفض رافيل لنصح  
إياه بالراحة التامة لمدة عام. لذا خضع لحقنٍ مكثفة من  
الخلاصات النخامية والكظرية والأمصال الخلوية وأملاح

الكاكوديل. كان يتلقى الحقنة تلو الأخرى، وما من أحد يحب ذلك. لكن النتيجة لم تكن مرضية، وحين اقترحت هيلين أن يغيّر العلاج، أجاب بأن هذا هو أيضاً رأي زميل كتب إليه مؤخراً يدعوهُ للتوجه إلى الطب التجانسي<sup>(1)</sup>:  
 بعض الناس لا يؤمن إلا بهذا؛ الطبّ التجانسيّ. على كلّ حال، سيفكر بالأمر عند عودته. ثمّ سكّت ليتأمل للحظاتٍ مناظرَ «سيفر»، لكن لم يكن هنالك الكثير ما يمكن رؤيته حقاً في «سيفر» ذلك الصباح، عدا بناياتٍ رماديةٍ موصدة الأبواب، وثيابٍ قائمةٍ مزرّرة، وقبعاتٍ غامقةٍ فوق الرؤوس، وسياراتٍ سوداءٍ مغلقةٍ النوافذ. لم يعد متيقناً من رغبته في السفر الآن. يحدث الأمر ذاته دوماً، أليس كذلك؟ يقبلُ الاقتراحات دون تفكير، وفي اللحظة الأخيرة، يغتم لذلك. والسجائر؟ هل تأكدت هيلين حقاً من أنهم تدبّروا أمر توفيرها له طيلة فترة سفره؟ أجابت هيلين بأن كلّ شيء قد أخذ بالحسبان. وماذا عن تذاكر

(1) الطبّ التجانسيّ أو الهوميوپاثي حسب الاسم اليونانيّ، طريقة في المداواة بالداء، يُرجعها مؤرّخو الطبّ إلى الإغريقيّ أبقراط، تقوم على إعطاء المريض موادّ تظهر أعراضاً مشابهة لأعراض مرضه إذا تناولها شخص صحيح، أي ما تدعوه العرب علاج المثل بالمثل.

القطار؟ هل التذاكرُ بحوزتها حقاً؟ كلُّ شيء هنا، قالت هيلين وهي تشير إلى حقيبة يدها.

دخلا باريس من بؤابة سان كلو، بلغا نهر السين فحاذياه عبر الرّصيف حتّى ساحة الكونكورد ومن هناك توغّلا في الجزء الشماليّ من المدينة صوبَ محطة سان لازار. كان المكان، بالطبع، أكثر نشاطاً وحيويّة من الضاحية الغربية، ولكن ليس أكثر بكثيرٍ في الحقيقة. يُرى رجالٌ يعتلون درّاجاتٍ هوائية، وملصقاتٌ على الجدران، ونساءٌ حاسرات الرؤوس، وعددٌ لا بأس به من السيّارات، بعضها فاخرٌ من طراز بانار لفاسور أو روزنغار. حين بلغا نهاية شارع «لابيينير» لمحا، وقد ولجا شارع روما، سيّارةً طويلةً من طراز سالمسون فال 3، ثنائية اللون، برّاقةً وانسيابيّة الشكل مثل حذاء القوّاد.

قُبيلَ العاشرة، ركنتُ هيلين سيّارتها البيجو المتواضعة أمام فندق تيرمينوس، ثمّ انتقلا إلى كريتيرون، الحانة التي اعتاد رافيل ارتيادها في «لا كور دو هافر»<sup>(1)</sup> حيث كانت في انتظاره، أمام المشروبات الساخنة، مارسيل جيرار ومادلين

(1) ساحة صغيرة ملاصقة لمحطة سان لازار بباريس.



غراي، وهما مغنيتان تنتميان للنوع الذي كان يطلق عليه آنذاك اسم المغنيات الذكيات<sup>(1)</sup>. تمهل رافيل كثيراً قبل أن يطلب فنجان قهوة، ثم آخر شربه ببطء أكبر، فيما الشابات الثلاث يُطالعن أكثر فأكثر رقاص الساعة أعلى طاولة البار وهنّ يتبادلن النظرات المتسائلة. بدأ يتباهن القلق، فاستعجلن الأمر حاسماتٍ قرارهنّ باصطحاب رافيل إلى محطة القطار المواجهة تماماً للكريتيون، لكي يصلوا قبل انطلاق القطار الخاصّ بنصف ساعة. لم يكن القطار على الرصيف حين وصلوا؛ رافيل في المقدمة، تتبعه عن بعدٍ صديقاته اللاتي يحاولن بشيء من المشقة مساعدة اثنين من حماليّ فندق تيرمينوس في جرّ أربع حقائب كبيرة، إضافة إلى صندوق. كانت الأمتعة ثقيلةً جداً، لكنّ أولئك الشابات كنّ شغوفاتٍ بالموسيقى.

منحنياً على السكة الحديدية، أشعل رافيل سيجارة غولواز قبل أن يُخرج من جيب معطفه جريدة «لانترانسيجان» التي كان قد اشتراها للتوّ من أحد الأكشاك حين لم يجد «لوبوبولير»، جريدته المعتادة. وبما

(1) تعبير ملطّف به كانت تُنعت المغنيات غير جميلات الأصوات.

أنا كنا في أواخر السنة، فقد عرضت الجريدة، حسب التقاليد، حصيلة العام، مذكرةً بإعادة العمل بنظام الانتخاب حسب الدوائر السكّنية، وإطلاق الباخرة عابرة المحيطات «كاب أركونا»، وإعدام ساكو وفانزيتي صعقاً بالكهرباء، وإنتاج أول فيلم سينمائي ناطق، واختراع التلفاز. ولئن كانت الجريدة لم تستطع ذكر كل ما حصل في ذلك العام في مجال الموسيقى عبر العالم، كولادة جيري ماليجان، مثلاً، إلا أنها ذكرت افتتاح قاعة حفلات بلييل الجديدة مؤخراً، الأمر الذي توقّف عنده رافيل قليلاً، باحثاً عن اسمه في المقال، هاذا كتفيه بعد أن عثر عليه. وحين لحقت به الشابات لاهثات، وقد تركن لخدم فندق تيرمينوس مهمّة جمع الحقائق على حافة الرّصيف على شكل هرّم، سألت هيلين بخجل عن الأخبار وهي تشير إلى الجريدة. ما من شيء مهم، ردّ قائلاً، ما من شيء مهم. على كلّ حال، إنها جريدة يمينيّة، أليس كذلك؟

ظهر القطار الخاصّ أخيراً، تجرّه قاطرة من نوع 120، بنسخة مختلطة من الـ 111 بوديكوم ذات السرعة العالية. بدأ الخدم يشحنون الحقائق في المقصورات المخصّصة لذلك،

فيما راقيل يودّع السيدات، مُبدياً كلّ لباقته في المجاملات  
وتقبيل الأيدي والتشكرات والعبارات الودية. ثمّ صعد  
إلى عربة الدّرجة الأولى، ليجد دون عناءٍ مقعده المحجوز  
قرب النّافذة. أنزل الزّجاج، وواصلَ التبادل البشوش  
للكلمات التي راحت تتناقص حتى لحظة الانطلاق، حين  
أخرجت تلك السيدات مناديلهنّ من حقائبهنّ وأخذن  
يلوّحن بها. لم يلوّح راقيل بشيء، واكتفى بابتسامة أخيرة  
شبه متشنّجة وإشارة من يده قبل أن يرفع زجاج النّافذة  
ويعود لقراءة الجريدة.

انطلق صوب محطة لوهافر البحريّة، كي يُبحرَ إلى  
أميركا الشماليّة. إنّها زيارته الأولى لتلك البلاد، وستكون  
الأخيرة. فما تبقىّ له من الحياة، مُنذ ذلك اليوم، هو عشر  
سنوات بالضّبط.

أما بخصوص الباخرة عابرة المحيطات «فرانس» (ثاني  
 باخرة تحمل هذا الاسم)، التي ستقلّ رافيل على متنها إلى  
 أميركا، فلا يزال أمامها تسع سنوات من النشاط، قبل  
 أن تباع لليابانيين ليتمّ تفكيكها. كانت الباخرة جزءاً من  
 الأسطول العابر للمحيطات؛ كتلة من الفولاذ المبرّشّم  
 تعلوها أربع مداخن واحدة منها على سبيل الزينة، وجسماً  
 طوله مائة وعشرون متراً وعرضه ثلاثة وعشرون، وقد  
 شيّدت قبل خمسة وعشرين عاماً في ورشات سان نازير  
 بينويه. كانت تتسع في درجاتها من الأولى إلى الرابعة لحوالي  
 ألفي مسافر، علاوة على خمسمائة رجل يتكوّن منهم طاقم  
 البحارة وهيئة القيادة. وكان يكفيها ستة أيام لقطع المحيط  
 الأطلسي على مهل، بحمولتها البالغة اثنين وعشرين

ألفاً وخمسة مائة طن<sup>(1)</sup>، المقذوفة بسرعة يبلغ معدّها ثلاثاً وعشرين عقدةً بفضل أربع مجموعاتٍ من الطوربينات من طراز بارسونز، يزوّدها بالوقود اثنان وثلاثون مرجلاً من نوع برودون-كابوس، لتولّد قوةً أربعين ألف حصان، بينما بواخر الأسطول الأخرى الأقلّ قوةً تجهدُ لاهثةً لتقطع المسافة ذاتها في تسعة أيام.

لم تكن الباخرة فرانس - وهي بمثابة فندق «بخاري» من سلسلة ريتز أو كارلتون - تراهن على السرعة فحسب؛ بل على الرفاهية أيضاً، كورقتين رابحتين. ما إن تقدّم راقيل للصعود على متن الباخرة حتّى قاده بحارةٌ تلاميذ، أنيقون في زيّ سُعاةٍ أحمرّ فاقعٍ وجديد، عبر سلاّمٍ وممراتٍ جانبيةٍ إلى الجناح الذي خُصّص له: شقّة فاخرة ذات زخارف خشبيةٍ مختلفةٍ العناصر - جَمِيْزٌ وبلوطٌ مجرّي، وقَيْقُبٌ نبيذّي اللّون أو رماديّ مبّقع -، بُسُطٌ من الشّيْت، أثاثٌ من خشب اللّيمون والبليساندر، وحمائم مزدوج قرمزيّ

(1) يمثّل الطنّ سعة برميل يساوي 252 غالوناً. والحمولات التي تقاس بها سعة السفينة نوعان، حمولات تقاس بالحجم وأخرى تقاس بالوزن، أما بالنسبة للحمولات التي تقاس بالحجم فالطنّ يساوي 100 قدم مكعب أو 2,83 متر مكعب.

اللون مع رخام متعدّد الألوان. وبعد أن تفحص رافيل المكان سريعاً، ألقى نظرة من إحدى الكوى المستديرة التي كان ما يزال ممكناً رؤية الرّصيف من خلالها. تأمّل حشد الأهالي والأقارب الذين هرعوا إلى الرصيف مُلوّحين بالمناديل، كما في محطة قطارات سان لازار بباريس، وبالقبّعات والورود وأشياء أخرى. لم يحاول معرفة أيّ شخص في ذلك الحشد؛ فهو وإن قبل الرّفقة إلى المطار، إلا إنّ أثر ركوب الباخرة وحيداً. بعد أن خلع معطفه، وفرد بعض الأمتعة، ورتّب أدوات الزينة حول حوض المغسلة، سارع إلى المشرف على قاعة الطّعام، ليحجز مكاناً لنفسه، ثم إلى المسؤول عن سطح السفينة ليحجز موضعاً لكرسيّ استرخاءٍ طويل. وفي انتظار الإبحار، تلكأ قليلاً في غرفة التّدخين الأقرب إليه. كانت جدرانها المصنوعة من خشب الماهاغوني مرصّعةً بعروق اللؤلؤ. دخن فيها سيجارة غولواز أو اثنتين، وقد خيّل إليه بسبب بعض النظرات التي أطالت التحديق فيه أو تلك التي أشاحت عنه، وبعض الابتسامات الخفيّة أو المتواطئة، أنّ الناس قد عرفوه .

كان هنالك ما يجعلهم يعرفونه، ذلك أمرٌ طبيعيّ؛ إذ كان قد بلغ ذروة المجدي في سنّ الثانية والخمسين، مشاطراً سترافنسكي مكانة الموسيقيّ الأكثر تقديراً في العالم، وقد أمكن مراراً رؤية صورته في الجريدة. وذلك طبيعيّ أيضاً بسبب مظهره الجسديّ: إنّ وجهه الحادّ الملامح، الحليق تماماً يرسم مع أنفه الطويل مثلثين رفيعين، يعلو أحدهما الآخر عمودياً. النظرة غاضبة وحادة وقلقة، الحاجبان كثيفان، الشعر مُسرحٌ إلى الوراء كاشفاً عن جبين عالٍ، الشفتان رقيقتان، الأذنان بارزتان بلا شحمتين، والبشرة كامدة. تحفّظ أنيق، بساطة مهذّبة، تأدّب يتّسم بالبرود، وهو ليس كثيرَ الكلام بالضرورة، إنه رجلٌ جافٌ لكنّه لبّيقٌ، وفي غاية الأناقة طوال الوقت.

غير أنّه لم يكن أمرّد دائماً، فقد جرّب كلّ شيء في شبابه: كان، وهو في الخامسة والعشرين، ذا سالفينٍ متناسقين مع نظارةٍ بعدسة مفردةٍ وسلسلة، وحيةٍ مدبّيةٍ في سنّ الثلاثين، أعقبتها تجربة إطالة لحيةٍ مرتبةٍ ثمّ شاربين. وفي الخامسة والثلاثين، حلق كلّ ذلك، مقصراً أيضاً شعره الذي تحوّل من شعرٍ ضافٍ إلى تسريحةٍ منضبطةٍ

ومستوية على الدوام، ثم ما لبث أن غزاه الشيب. ولكنّ ملّمحه الأساس كان قامته، وقد كان يعاني منها، فهي تجعل رأسه يبدو أضخم قليلاً مما يجب، بالقياس إلى جسّمه. كان رافيل، بطوله البالغ متراً وواحداً وستين سنتراً، ووزنه البالغ خمسة وأربعين كيلو غراماً، ومحيط صدره الذي يصل إلى ستة وسبعين سنتراً، بحجم فارس سباق، أي بحجم ويليام فوكنر، الذي كان، في الفترة ذاتها، يوزّع حياته بين مدينتيّ، أوكسفورد في الميسيسيبي ونيو أورليانز، وبين كتابين، «البعوض» و«سارتوريس»، وبين نوعين من الويسكي، جاك دانيلز وجاك دانيلز.

كانت السماء الغائمة تكتنف شمساً غير واضحة حين صعد رافيل، وقد نتهته الصّافرات معلنةً بدء الإبحار، إلى سطح الباخرة العلويّ لكي يراقب حركة الباخرة من خلف الزّجاج. بدا أنّ التعب العظيم الذي اشتكى منه في ذلك الصباح، في سيّارة البيجو 201، قد تلاشى مع انطلاق الصّفّارات الثلاثية الأنغام (دومي دو). فجأةً، شعر بنفسه خفيفاً، ممتلئاً بالنشاط، حيويّاً، حتّى أنّه خرج إلى الهواء الطلق. لكنّه لم يمكث طويلاً، إذ سرعان ما أحسّ بالبرد



الشديد من دون معطفه. فشدّ أطراف سترته على صدره وهو يرتجف. وجعلت الريح التي هبت دفعةً واحدة ثيابه تلتصق بجلده، منكرةً بذلك وجودها وجدواها. وبما أنها هاجمت مباشرةً سطح جسمه، أحسّ الرجل نفسه عارياً، وحاول أكثر من مرّة تمالك نفسه كي يُشعل سيجارة، لكنّ أعواد الثقاب كانت تنطفئ سريعاً. نجحت محاولاته أخيراً، ولكنّ هذه المرّة، وكما حدث في الجبال - كان هذا تذكراً خاطفاً للمصحّ<sup>(1)</sup> - لم يعد لسيجارة الغولواز طعمها المعتاد. لقد استغلّت الريح الدخان لتنفذ معه إلى رثتي رافيل، وليحلّ البرد في جسده من الداخل هذه المرّة. لقد هاجمته من كلّ الجهات، فقطعت نفسه، وبعثرت شعره ونثرت رماد سيجارته على ملابسه وفي عينيه. وحين تجاوز عدم التكافؤ في المعركة الحدّ، بات من الأجدر الانسحاب. عاد رافيل، كما فعل الآخرون، إلى ما وراء الكوة المزجّجة، ليراقب مناورة الباخرة وهي تدور ببطء في ميناء لوهافر، ثمّ تعبر المرسى وهدير محرّكاتها يعلو قبل أن تخرج خروجاً

(1) إشارة إلى الوقت الذي أمضاه رافيل في مصحّ مالميزون Le Sanatorium de la Malmaison، للعلاج من مرض السل.

رائعاً من أمام سانت آدريس ورأس لا إيف.

وبما أنّ الباخرة سرعان ما باتت في قلب البحر، فقد ملّ المسافرون المشهد بالسرعة ذاتها، وغادروا الواحد إثر الآخر الكوّة المزججة، لكي يتأملوا مُبهرين تجهيزات «فرانس» الباذخة؛ نحاسيّاتها وزخارفها التي من خشب الورد، وحريرها الدمشقيّ وأباريزها، وشمعداناتها وبُسطها. أمّا رافيل، فلبث في مكانه، مؤثراً أن يتأمل لأطول فترةٍ ممكنةٍ ذلك السطح الأخضر والرماديّ، الذي تتخلّله خيوطٌ بيضاء خاطفة، على أمل أن يستلهم منها لحناً أو إيقاعاً، أو لازمة، لم لا؟ كان يعلم أنّ ذلك لا يحدث على هذا النحو أبداً، أنّ ذلك لن ينجح بهذه الطريقة، أنّ لا وجود للإلهام، وأنّ المزمع لا يؤلّف الموسيقى إلّا جالساً خلف البيانو. ومع ذلك، ولأنه كان للمرة الأولى في حياته أمام مشهدٍ كهذا، لم تكن المحاولة لتكلفه شيئاً. لكن بعد لحظات، تبين أنّ ما من فكرة قد خطرت له، وبدأ هو أيضاً يملّ، وأطلّ شبحُ السأم برأسه، يداً بيدٍ مع التعب الذي عاد مثل البومرانغ<sup>(1)</sup>. هذه الاستعارات المتنافرة تشهد

(1) البومرانغ: لعبة صغيرة من الخشب أو من موادٍ أخرى، ابتكرها سكان =

أيضاً بأنّه قد يكون من الأفضل الإخلاء إلى الرّاحة قليلاً. تاه راڤيل في أحشاء السّفينة باحثاً عن جناحه الخاصّ، وقد شعر بشيء من المتعة في الضياع في ذلك البناء وسط الماء. وما إن بلغه حتّى تمدّد في سريره، منتظراً التوقّف في ساوئمبتون التي كان يُتوقّع الوصول إليها مع هبوط الليل، ثمّ الانطلاق مجدّداً لتبدأ حقّاً رحلة عبور الأطلسيّ. عاوده الشعور بالضعف، إذ كان غداؤه بيضةً مسلوقةً فقط، التهمها على رصيف الركوب، ثمّ تشبّع صدره الهشّ بجرعات عظيمة من هواء البحر. متمدّداً، جاهد لكي ينام قليلاً، إلّا أنّ الصراع بين توتر أعصابه وفتور جسده فاقم كليهما، فنجم عنه تعبٌ ثالث، جسديٌّ ومعنويٌّ يفوق حاصل مكوّناته. استقام وحاول أن يقرأ قليلاً، لكنّ نظرته كانت تنزلق على السطور من دون أن تستخلص منها أيّ معنى. مستسلماً، نهض ليذرع الجناح متفحّصاً كلّ تفاصيله، ولكن بلا نتيجة، فقرّر أخيراً

---

= أستراليا الأصليّون (الأبوريجين)، مصنوعة بحيث يطلقها اللاعب في الفضاء فتتبع فيه مساراً منحنيّاً ثمّ تعود إلى راميها. وقد صنعت بعض القبائل أسلحة أو أدوات صيد تعتمد المبدأ ذاته، ولذا تُترجم الكلمة أحياناً إلى «السلاح المرتدّ».

تفتيش أمتعته ليتأكد من أنه لم ينس شيئاً. لا، لم ينس أيّ شيء. فبالإضافة إلى حقيبة زرقاء صغيرة محشوة إلى آخرها بسجائر الغولواز، احتوت الحقائب الأخرى، مثلاً، على ستين قميصاً، وعشرين زوجاً من الأحذية، وخمسة وسبعين ربطة عنقٍ وخمسة وعشرين بيجامة، وهذا ما يعطي، وفقاً لمبدأ «الجزء يدلّ على الكلّ»، فكرةً عن مجموع ما تضمّه خزانةُ ثيابه.

لطالماً اعتنى بتكوين تلك الخزانة وبصيانتها وتجديدها، وكان يتبع دائماً أحدث اتجاهات الموضة، هذا حين لا يكون قد سبقها. فهو أوّل من ارتدى، في فرنسا، قمصان الباستيل، وأوّل من ارتدى كامل ملابسه باللون الأبيض -«التريكو»، والبنطال، والجوارب، والحذاء- وحين كان يطيب له ذلك، كان يبدي انتباهاً وعناية كبيرين لهذه المسألة. لقد شوهد، في شبابه، بملابس سوداء وصدارٍ مُذهل، وقميص بكشكش، وقبعة عالية بزنبُرك، وقفازين أصفرين. كما رأيناه مع ساتي<sup>(1)</sup>، مرتدياً معطف راغلان<sup>(2)</sup>؛

(1) إريك ساتي Erik Satie، مؤلف موسيقى وعازف بيانو فرنسي (1866-1925).

(2) معطف يمتدّ كماه حتى العنق.

بيده عصا خيزران بمقبض مقوّس، معتمراً قبعة ديربي؛ كان ذلك قبل أن يبدأ سأتي بالحديث عنه بالسوء. وقد شوهد شارّد النظرات ممرّراً يده تحت طيّة ريدنغوت<sup>(1)</sup>، معتمراً هذه المرّة قبعة كرونشتات<sup>(2)</sup> خلال استراحة المرشّحين لجائزة روما؛ كان ذلك قبل إقصائه منها خمس مرّاتٍ متتالية، إذ كانت الحرية المفرطة التي تعامل بها مع «الكانتاتا» أكبر من أن يتقبّلها أعضاء لجنة التحكيم، الذين أكدوا أنّه إنّ كان من حقّه أن يتوّهم أنّهم رجال إطفاء فلن يكون بوسعه أن يستغيبهم من دون أن يعاقب على ذلك. كما شوهد يرتدي بذلة باللونين الأبيض والأسود، وجوربين مخطّطين باللونين ذاتيهما، وخذاءً أبيض، وعلى رأسه قبعة من قشّ، وفي يده عكّازة كأنّها امتداد لذراعه، فالعكّازة لليد كالابتسامة للشفتين. وقد رأيناه أيضاً، في بيت ألما ماهلر<sup>(3)</sup>، مكسوّاً بقماش التفتا اللّامع؛ كان ذلك قبل أن تُشيع ألما عباراتٍ ملتبسةً بخصوصه. وفي ما عدا

(1) معطف طويل فضفاض يصل إلى حدّ الركبتين، كان في الماضي يُرتدى في ألعاب الفروسية والحفلات.

(2) نسبة إلى المدينة الروسية التي تحمل الاسم ذاته.

(3) موسيقىّة وفنان تشكيليّة نمساويّة (1879-1964).

ذلك، كان لديه بُرنس حَمَامٍ أسودٌ مطرُزٌ بالذهب، وبذلتنا سموكن؛ واحدةٌ في باريسٍ والأخرى في مونفور.

حين علا صوت الصفارات ثانيةً معلناً الوصول إلى ساوثمبتون، ارتدى رافيل معطفه وصعد ليُشاهدَ عملية محاذاة الرصيف ثمّ الرسوّ. من السطح العلويّ، في الليل الذي هبط فجأةً، وبعد أن أتاح خطُّ النقاط المائلة إلى الصّفرة الذي شكّلته المصابيح رؤيةً ضفتيّ الممرّ المائيّ الضيق المؤدّي إلى الميناء، غدا هذا مضاءً بصورة أفضل. فبدأ رافيل يتبيّن هياكلَ الرافعات الشاهقة المنصوبة على أرصفة المرفأ، وسفينة «موريتانيا» راسيةً في حوض جافّ، والملاك البرونزيّ أعلى الصّرح التذكاريّ لسفينة تاييتانيك، وقطاراً أخضر من قطارات «ساوثرن ريلوي» متوقفاً على حافة الرصيف، الذي لمح عليه أيضاً، قبل اقتراب الباخرة منه بقليل، مجموعةً من الأشخاص. انفصل أحد هؤلاء عن المجموعة، وكان يحمل في يده ملفاً، بعد أن رسّت السفينة، ثمّ صعدَ بخطوة رشيقة إلى مثنها، فور وضع السلم المتحرّك.

.بوجه هادئ وبذلة أنيقة وصوت عذب، ونظارة

بعدسة مفردة، وقميص بياقة مقصوفة، بدا جورج جان أوبري<sup>(1)</sup> مثل أستاذ جامعي أو طبيب، أو طبيب شرعي، أو مثل أستاذ طب شرعي. كان رافيل قد التقاه قبل أكثر من ثلاثين عاماً، في قاعة «إيرار»، يوم قُدّم عرض «مرايا» للجمهور بأداء ريكاردو بينيس<sup>(2)</sup>. جاء جان أوبري المقيم في لندن إلى ساوثمبتون لتحية رافيل خلال هذا التوقف القصير، ولكي يقدم له نسخة من ترجمته لكتاب جوزيف كونراد «السهم الذهبي»، التي كان قد انتهى من إنجازها للتوّ، بغية نشرها العام التالي لدى دار غاليمار، وقد خطر له أنّ قراءة الكتاب قد تشغل وقت رافيل خلال الرحلة. أمّا كونراد، فكان قد مضى على وفاته ثلاث سنوات.

---

(1) ناقد موسيقي ومترجم فرنسي (1882-1950). صديق جوزيف كونراد، ومترجمه، وكاتب سيرته.

(2) Ricardo Viñes عازف بيانو إسباني (1875-1945).

كان رافيل وجان أوبري قد زاراه قبل وفاته بثلاثة أعوام ولم تكن بالزيارة الممتعة. كان كونراد أعرض منكباً من رافيل، لكنّه كان قصير القامة مثله، مثلث الوجه، وبالأحرى، قليل الكلام، لميلٍ طبيعيٍّ لديه إلى عدم البوح بمكنوناته عزّزه اعتلالٌ في صحّته، فقد كان مصاباً بوهن الأعصاب، تملكه نوباتُ الغضب، كما أقعدته عن الحركة آلامُ أسفلِ الظهر والنقرس الذي أصاب معصميه وأصابعه. أمّا إذا قبل أن يتكلّم، فبفرنسيةٍ صبغتُها لُكنةُ أهلٍ مرسيليا؛ ذكرى إقامته الأولى في فرنسا - ثلاث سنوات أمضاها على متن عدد من السفن التابعة لشركة ديلستان وأولاده، أوّلاً بصفته مسافراً، ثمّ ربّاناً، ومضيفاً، قبل محاولته الانتحار بإطلاق رصاصة في القلب لم تصبّه.



حدث ذلك عقب ولادة رافيل بالضبط.

وبما أنّ هذا الأخير، كان قادراً، مثل كونراد على تجنب أن يكون ثرثاراً، فقد اتّسم حديثهما بشيء من الجفاف وإن تخلّلتُه لحظاتٍ استرخاءٍ عبّر فيها الأوّل، بشيء من التحفظ، عن حبّه لما يكتب الثاني من أدب، وحاول فيها الثاني أن يخفي بكلّ لباقة جهله بموسيقى الأوّل. في صحراء الحديث تلك، كان جان-أوبري يركض مثل رجل إطفاء تجاوزه الحدّث، من مساحة صمتٍ إلى أخرى، ساعياً لمنحهما، بالتناوب، قليلاً من التنفّس الاصطناعيّ. هكذا استحضرت، على سطح الباخرة «فرانس»، اثنتان أو ثلاث من ذكريات ذلك اللقاء، ثمّ أنهت الصّافراتُ الحديث، وودّع الرجلان ساوئمتون بعد أن وعد جان أوبري رافيل بأن يرسل إليه نسخةً من كتاب «القرصان» الذي كان قد فرغ من ترجمته أيضاً، ليصدّر بالتّزامن مع «السّهم الذهبيّ».

حين عاد رافيل إلى قمرته المزدوجة لم يجد في نفسه الرغبة في تبديل ملابسه من أجل العشاء. وبعد تفكير، ونظراً لما حلّ به من تعب، لم يرغب في الذهاب إلى قاعة الطعام

في ذلك المساء. وبعد أن طلب كأساً من شراب البيرنو، أخبر العاملين أنه يفضل أن يعدّ بنفسه قائمة طعامه، وقد أعجبه أن يستعيد في عرض البحر وجبته المعتادة التي كان يتناولها في أرض مونفور لاموري: سمك الطراخور بالخلّ، وشريحة لحم كبيرة لم تنضج تماماً، وقطعة من جبن غروير، وشيء من فاكهة الموسم، وكلّ ذلك مع دورقٍ من النيذ الأبيض.

ثم إنّ الوقت كان باكراً، فلم تكن قد دقت الساعة التاسعة والنصف حين انتهى من أكل هذا كلّه. في مونفور، كان لا يفكر في النوم بعد العشاء، فتكون هذه بداية الليل. وكان ضيق منزله يكتّف عدداً لا يحصى من الأنشطة الممكنة، وإن كانت لا تستغرق سوى لحظةٍ أو تقتصر على تفاهات. من الصالة إلى المطبخ، مروراً بالمكتبة والبيانو، وجولةً صغيرةً أخيرة في الحديقة. كان لدى رافيل دائماً ما يفعله، حتّى وإن لم يفعل شيئاً، إلى أن يضطرّ أخيراً للذهاب إلى النوم. ولكن هنا، ما من تسلية، ولا من مهمّة، ولا ارتباط، ولا رغبة في الذهاب لتزجية الوقت في بارات الباخرة «فرانس» ولا في صالات قمارها. وعلى

الرغم من أنّ مقصوده كانت أصغر بالطبع من منزله في موفور، إلا أنها كانت تُحدث فيه تأثيراً معكوساً مزدوجاً: فهي باتساعها المفرط، بطريقة ما، تعطي لجسده، بالضبط، الحجم الذي تمنحك إياه غرفة في مشفى: حيزٌ أساسٌ لكنه مبتور، حيث لا شيء آخر يمكن التثبيتُ به غير نفسك؛ فيشعر المرء أنه في مصحح عائم. فتح راقيل الصفحة الأولى من ترجمة كتاب كونراد التي أعطاها إياها جان أوبري وتأمل العبارة الأولى: «الصفحات التالية مقتطفة من مخطوطٍ ضخمة موجّه على ما يظهر إلى امرأة واحدة». لم تكن البداية سيئة، غير أنه لم تكن لديه رغبة في القراءة ذلك المساء. لا بأس في أن يخالف عاداته لمرة واحدة. في الحقيقة، لقد غشيه التعاس.

ها هو يخلع ملابسه، ثم يفرد واحداً من ثيابه الليلية الخمسة والعشرين. بعد أن تردّد أمام رفّ بيجاماته الخضراء آثر، أخيراً، واحدة منها بلون الزمرد على أخرى خضراء ضاربة إلى الصفرة. وفي أثناء ذلك كان يتشاءب، ثم شعر بالخدر، وهو ما عزز قناعته بقراره. أطفأ الأضواء ما عدا مصباح السرير، لنيته، مع ذلك، أن يقرأ قليلاً

قبل محاولة النوم. أخلد إلى السرير، وفتح الكتاب ثانية، وبدأ بالعبرة الثانية ثم ما تلاها: «يبدو أنّ المرأة كانت صديقة طفولة الكاتب، كان كلّ منهما قد اختفى عن ناظري الآخر وهما بعدُ طفلان، أو أكبر قليلاً، وانقضت السنون». وبدأت عيناه تطرفان مع نهاية الجملة الرابعة، لم يعد يفهم شيئاً. سنستأنف هذا غداً. أطفأ رافيل بحركة اعتيادية مصباح السرير كما لو كان يألّف موضعه منذ زمن بعيد، ثم لم تكد الساعة تبلغ العاشرة حتى سقط عميقاً في النوم مثل حجر في بئر، وهو الذي كان دائماً يطارد التّوم حتى الفجر، فينتهي به الأمر إلى اصطياذ نعاسٍ رديء، مُستهلك، أو حتى إلى الإخفاق في الوصول إليه.

نام، وفي اليوم التالي، وكما يحدث يومياً على متن البواخر في العالم منذ الأزل، يقدمون لك عند الحادية عشرة طاسَ حساءٍ ساخن. وعلى كرسيّ الاسترخاء الطويل، ملتفاً ببطانية سميكة، تشربُ وأنت تتأمل المحيط حساءك الساخن جداً، في جوٍّ دافئٍ على الرغم من تساقط الرّذاذ. إنه لذيذٌ جداً. إنّ كراسي الاسترخاء الطويلة من هذا النوع، والتي سنها لاحقاً في كلّ مكان، في الحدائق

وعلى الشواطئ، وفي الشرفات وعلى السطوح، لم نكن نراها آنذاك إلا على متن البواخر عابرة الأطلسي، وقد احتفظت هذه الكراسي، بعد أن حطت على اليابسة، من تلك البواخر باسمها، وذلك تعلقاً بها: «ترانس».

كان كرسيُّ رافيل مخطّطاً بالأزرق والأبيض، وسطحُ السفينة المخصّص للتزّه مُركّباً من خشبِ صنوبرِ جُزر الكناري الأصفر، الذي تتخلّله عروقٌ ضاربة للحمرة. كان يتأمل المحيط، مثل الآخرين دون أن يدخل بعفويةٍ في علاقةٍ معهم. فهو وإن تخلّى عن بروده المتحفّظ أيام شبابه، إلا أنّه لم يتحوّل، بذلك، إلى رجلٍ يُسارع لعناق الآخرين. إلى يمينه، كان هنالك زوجان تشير هيتهما إلى أتهما من أرباب الصّناعة، وإلى يساره امرأةٌ وحيدة، في سنّ الخامسة والثلاثين، تُنقل بصرها بين تأمل المحيط وقراءة كتابٍ كادثٍ بسببه أن تنخلع رقبةً رافيل، دون أن يشعر أحد، وهو يحاول تبين عنوانه.

على ركبتيه هو، استقرّ مفتوحاً المخطوط الذي تركه له جان أوبري، والذي يقدّمه مؤلّفه على أنّه قصّة تتوسّط ملاحظتين. كان رافيل قد فرغ لتوّه من قراءة الملاحظة

الأولى، «مثال بارز على السطوة التي يمكن أن تكون لشخصية قوية على شاب صغير». بعد ان أنهى حساءه، وحيث أن الجو قد بدأ يبرد قليلاً، غادر رافيل السطح إلى قاعة القراءة، متوقفاً في طريقه عند ديكور الدرج الكبير، وهو من المرمز الأصفر وحجارة لونيل الرمادية. كان نسخة طبق الأصل من درج فندق الكونت دو تولوز في رامبويه. وبينما تفرق المسافرون الآخرون، فمنهم من مضى إلى قاعة الرياضة أو إلى ملعب الاسكواش، ومنهم من توجه إلى المسبح، أو الحمام التركي الكهربائي أو إلى ملعب الجولف المصغر، أو إلى سطيحة صعود الركاب، ليلعب الشفلبوردي<sup>(1)</sup>، أو إلى قاعة التدخين ليجرّده المحتالون المحترفون من ماله، فضل رافيل مواصلة القراءة، بانتظار ساعة الغداء. حين حانت تلك اللحظة، وبدلاً من التوجه إلى قاعة الطعام حيث حُجز له مكان، آثر أن يؤخّر تناول طعامه، كي يذهب لاحقاً إلى المطعم الذي يمكن فيه للزبون أن يختار. هناك، يكون المرء أكثر

---

(1) لعبة تقوم على دفع أقراص على لوح أملس باتجاه هدف أو اثنين مرسومين عليه، ويقسم اللوح إلى مناطق مرقمة لحساب النقاط.

حريةً بنفسه، فيأتي حين يريد، ليأكل ما يريد. وبما أنه كان آخر يوم في السنة، فقد خشيَ رافيل أن تكون السهرة طويلةً وعامرةً، وحيّةً، وصاخبةً، لذا اختار، تحسباً لذلك، أن يتناول غداءً خفيفاً.

انقضت فترةُ العصر، في السينما أولاً، حيث عُرض فيلم «نابليون» الذي جاء ليعلن، مع فيلم «متروبوليس»، نهاية السينما الصامتة. شاهد الفيلم للمرة الثانية دونما انزعاج، مع أن ميله لخفة المزاج ونزوعه للاستمتاع بأقل شيء كانا سيجعلانه يفضل أعمالاً أحدث وأقلّ جديةً، مثل «عذراء النوم»، الذي كان قد سلّاه كثيراً العام الفائت، أو «باتويار وبقرته» أو حتى «بيغورنو بناء السقوف». ثم جهّز نفسه، بعد أن ذهب إلى قُمرته ليتمدّد قليلاً، فارتدى بذلته السموكن المفضّلة، وذلك لكي يتناول العشاء، هذه المرة في قاعة طعام الدرجة الأولى. وهنا، لا يمكنه أن يتجنّب ربّان الباخرة، الحاضر على المائدة، بلخيّته البيضاء القصيرة وزيّه الرّسميّ المهيب. وخلال ذلك العشاء، وعلى نحو لا يقلّ حتميّةً، سيدور الحديث عن الحرب العالمية الأولى، فقد كانت ذكرى الهدنة على الأبواب، وهكذا شرع كلُّ

يروى ذكرياته. وبما أن رافيل وجد نفسه بالقرب من الزّوجين من أهل الصناعة اللّذين لمحهما ذلك الصباح على سطح السفينة، فقد روى لهما حربه هو.

في عام 1914، أراد حقاً الانخراط في الحرب على الرغم من أنّه كان قد أُعفي من أيّ شكل من أشكال التجنيد الإلزاميّ، بعد أن أوضحوا له من دون مجاملة أنّهم يجدونه نحيلاً أكثر ممّا ينبغي. حين رجع إلى البيت خائب الأمل، خطرت له فكرةٌ ظنّها مقنعة - وقد رغب بقوة، لا ندري لماذا، في أن يُعيّن قاذفَ قنابل من الطائرة - فعاد إلى مسؤولي التجنيد ثانيةً مُحاجّاً بأنّ خفة وزنه تحديداً تؤهله للالتحاق بسلاح الطيران. ومع أنّ ذلك بدا منطقيّاً، فإنّهم لم يأخذوا بحجّته وكان رفضهم قاطعاً. خفيفٌ أكثر ممّا ينبغي، كانوا يقولون، خفيفٌ أكثر ممّا ينبغي، ينقصك على الأقل كيلوان. ولكن بفعل إلحاحه الذي لم يتوقّف وبعد ثمانية أشهرٍ من الإجراءات، انتهى بهم الأمر بقبوله، رافعين أبصارهم نحو السماء، إذ لم يجدوا ما هو أفضل من ضمّه، بلا سخرية، سائقاً في قسم الفصائل السيّارة، شعبة العربات الثّقيلة، بالطبع. وهكذا شوهدت ذات



يوم شاحنة كبيرة تهبط شارع الشانزليزيه، يغالب مقودها الضخم شبح صغير يرتدي معطفاً أزرق وأكبر مما ينبغي. جردٌ يمتطي فيلاً.

كان في البدء قد عُيِّن في المرآب الواقع في شارع فوجيرار، ثم أرسل في السادس عشر من شهر مارس إلى الجبهة، غير بعيدٍ من فردان، مكلفاً، كما هو الأمر دائماً، بقيادة آلياتٍ ثقيلة. وبعد أن أصبح جندياً مُقاتلاً، يرتدي الخوذة والقناع وجلد الماعز، قادَ غيرَ مرّةٍ آليته تحت وابلٍ من القذائف، حتّى ليُخيّل للمرء أن فصيلَ مدفعيةٍ يكره الموسيقى قد عرفه بشخصه، لا بل تعلق به، بصورةٍ من الصّور. ويبدو أنّه ما من أحدٍ في أيّ قسم - حتّى في قسم عربات الإسعاف - كان مُعرّضاً للقصف أكثر منه في الشعبة 75؛ شعبة المدافع 75 المحمولة على شاحنات مصفّحة. ذات يوم، تعطلّ محرّك شاحنته، فوجد نفسه متروكاً لمصيره في البريّة، حيث أمضى أسبوعاً كاملاً، وحيداً تماماً مثل روبنسون كروزو. وقد اغتنم تلك الفرصة ليدوّن بعض أناشيد الطيور التي انتهت، وقد ملّت الحرب، بالتّظاهر بأن لا شيء يحدث، فلم تعد تنقطع

عن الغناء عند أقلّ انفجار، ولم يعد يزعجها استمرارُ  
التفجيرات بالقرب منها بلا أيّ انقطاع.

أما وقد لاقت هذه الحكاية نجاحاً كبيراً لدى  
المدعوّين، فبوسعنا التوقّف لحظةً عند مكوّنات وليمة  
العشاء تلك. كانت قائمة طعام باذخةً على نحوٍ عاديٍّ  
تماماً - كافيّار، سرطان البحر، طائر السّمان المصريّ،  
بيض الزقراق الشاميّ، عنب الدفيئة، وكلّ ما يمكن أن  
يخطر ببال المرء من شراب. وبعد أن حلّق القبطان عالياً  
بفعل الكحول، أو ما بابتسامةٍ رقيقةٍ نحو رافيل، رافقتها  
حركةٌ خاطفةٌ بإصبعين. مع تلك الإشارة، ظهر عازفان  
بحلّةٍ بذيّلٍ أسود وصدارٍ أبيض: أحدهما يمسك في يده  
كمنجة، والثاني يجلس خلف البيانو، فخيّم الصّمت على  
قاعة الطعام.

وما إن تبادل الاثنان نظرةً صغيرةً وإيماءةً بالرأس حتّى  
شرعا في عزف الحركة الأولى من السّوناتا التي كان رافيل  
قد انتهى من تأليفها تلك السنة، والتي أهداها لهيلين،  
وقدّمها هو نفسه مع أنيسكو على آلة الكمنجة، في قاعة  
إيرار كالعادة، في شهر مايو. لا يكفي القول إنّ رافيل

كان مُحَرَجاً، لا بل ومنزعجاً قليلاً. في العادة، كان يخرج من الحفل ليدخّن سيجارة حين يأتي الدور لتقديم أحد أعماله، فلم يكن يحبّ أن يكون حاضراً عند عزف عمل من تأليفه. لكن هنا، لم يكن ثمّة مهرب، فقد أرادوا، بنية طيبة، تقديم مفاجأة صغيرة له. جاهد نفسه لبيتسم، بينما هو يتذمّر في سريره، خاصة وآته رأى أنّها لم يجيدا عزف سوناتاته الجديدة. وحين انتهيا، بعد ربع ساعة، من عزف الحركة الأخيرة، «الحركة السرمديّة»<sup>(1)</sup>، طرحت مشكلة أخرى نفسها: هل يصفق أم لا؛ فأن يصفق لعمله أمرٌ غير لائق بقدر ما هو غير لائق أن لا يصفق للعازفين. متشككاً، نهض مصفقاً وهو يشير بيديه بوضوح صوب العازفين، ثم صافحهما بحرارة قبل أن يؤديّ التحيّة معهما في اللحظة نفسها، وسط تهليل الحاضرين جميعاً في الدرجة الأولى، على متن الباخرة «فرانس».

بعد العشاء وجمع التبرّعات الخيرية التقليدية لصالح المنشآت البحرية، وبعد أن تبرّع رافيل كما يفعل عادةً، أمكن للحفلة أن تبدأ. استمرت الحفلة العظيمة التي

(1) اسمها موضوع باللاتينية: *perpetuum mobile*.

امتدّت في كامل سطوح الباخرة العليا حتّى الهزيع الأخير من الليل، بل حتّى الصباح بالنسبة لبعض المشاركين، هذا بعد تبادل التهاني مطوّلاً عندما دقت الساعة معلنةً انتصاف اللّيل وبداية العام الجديد؛ وقد تكرّرت تلك التهاني وبحرارة متزايدة حتّى خيوط النهار الأولى، نظراً لتنوّع البلدان التي جاء منها المسافرون، ولفرق التوقيت، وللحماس الذي أثارته فيهم الكحول. كانت البالونات، والقصاصات الورقيّة، وحبّال الزينة، والأوراق الحلزونية الملوّنة تملأ القاعات وغرف التدخين والمقاهي والمظلات والممرّات، تحرّكها، في كلّ رُكن، أنواعٌ مختلفة من الفرق الجاهزة لتلبية كلّ الأذواق. كانت فرقةٌ موسيقي حجرة تعزفُ بهدوءٍ، على مسافةٍ كافيةٍ من فرقةٍ موسيقي راقصةٍ، ومغنيّةٍ فرنسيّة واقعيّة تتآخى مع رباعيّ موسيقيّ روسيّ، لكنّ رافيل أمضى قسطاً كبيراً من ليلته بالقرب من فرقة جاز، مصغياً بانتباهٍ لهذا الفنّ الجديد والهشّ، وسط الأميركيان السّكاري.

في صباح اليوم التالي، نهض متأخراً، وتلكأ في السرير حتى فاته شربُ الحساء على سطح الباخرة. ثم مضى، مُرتدياً ثياباً مريحةً من القطن الخفيف المُجعد، في جولةٍ على سطح التنزه الذي كاد يكون مُقفراً، حيث كان اثنان من البحارة الفثيان يجمعان، على صينيتين، الطاسات المتناثرة بين أرجل كراسي الاسترخاء الطويلة. كان لون البحر أخضرَ يكاد يسود.

على متن السفينة، سرعان ما يشعر المرء بأن الوقت طويل. كما أنه سرعان ما يشعر بأن النهارات لا تبدو أطول مما هي عليه في اليابسة فحسب، بل هي حقاً كذلك؛ فنظراً لتوزع فارق التوقيت على زمن الرحلة، فإن اليوم يبلغ بيسرٍ خمساً وعشرين ساعة. كما تساهم الحكمة في

توفير التسلّيات على متن الباخرة في مطّ ساعاته. والحقيقة أنّ المرء، في الدرجة الأولى، يمضي وقته، على وجه الخصوص، في تبديل ملابسه ثلاث مرّاتٍ في اليوم. تلك هي التسلية الأساس. فيما عدا ذلك، فإنّ الجنس اللطيف يطيل الجلوس كثيراً في كراسي الاسترخاء الطويلة، بينما يلعب الجنس الخشن الورق -ويست، بريدج، بوكر-، إضافة إلى الضّامة والشطرنج والدومينو. وتُنظّم أيضاً بعض الألعاب الاجتماعية ومن بينها سباقات الخيول الخشبية التي تقترن بمراهنة بين طرفين، كما تُجرى، كلّ مساءٍ أيضاً عدا يوم الأحد -حيث تحظر التقاليدُ ذلك- مراهناتٌ بمبالغٍ ضخمة على تحديد الموقع الصحيح للباخرة. باختصار، كان من حسن حظّ رافيل، الذي يجيد السباحة، أن كان هنالك مسبحٌ. كان يخرج منه كلّ يوم إلى صالون الحلاقة، فيستغرقُ تماماً في قراءةٍ كاملة لجريدة «لاتلتيك» اليوميّة، التي يُعدّها مشغلُ الطباعة في الباخرة انطلاقاً من الأخبار التي ترد من المحطات الساحليّة عبر الاتّصال اللاسلكي.

كان لديه أيضاً إمكان استكشاف الباخرة. وعلى الرغم

من أن ركب الدرجة الأولى لا يستطيعون الاحتكاك  
بركاب الدرجات الدنيا، حيث الجو أكثر استرخاءً، فإن ما  
تبقى من مساحة كان من الاتساع بحيث تستغرق زيارتها  
نهاراً كاملاً. لم يكن رافيل يحرم نفسه من ذلك. كان يذرع  
سطوح الباخرة، متوقفاً عند السطح الصغير بالقرب من  
منطقة الضباط، ثم يمضي لحظة في مقرّ مذياع الباخرة،  
وبعدها في غرفة الحراسة، حيث يشرحون له كيفية  
التعامل مع الأجهزة، ويهبط ليتأمل مُعجباً الطوربينات  
في قاعة الماكينات؛ تلك المعدة الهائلة التي تعطي درجة  
حرارتها وضجيجها فكرةً عن جهنم - لكنه دائماً ما أحب  
الميكانيك والمصانع، والمصاهر والفولاذ المُحمّر، فترُوس  
الآلات تمنحه أفكاراً إيقاعيةً أكثر مما تفعلُ الأمواج. بعد  
ذلك، كان بمقدوره الصعودُ إلى تجهيزات الهياكل العليا،  
ومتابعةُ القراءة في المقهى - الشرفة، والتسكُّع بالقرب من  
صالة الرياضة أو إلقاء نظرةٍ على ملعب كرة المضرب،  
على السطح المشمس. مرّة واحدة فقط، إذ كان ضعيف  
الإيمان، زار الكنيسة الصغيرة، التي هي، كما نعرف، أوّل  
حيز يُعدّ على الباخرة حين تُبنى وآخر مكانٍ يُلجأ إليه في

حال وقوع كارثة.

حسناً، جرت الأمور على هذا النحو لفترة من الزمن، وبما أن تلك الأيام تتشابه كلها، فمن غير المجدي التوقف عندها للأبد، فلنعبّر إذن إلى الأيام الثلاثة التالية. قبل وصول الباخرة «فرانس» إلى نيويورك بيومين، قدم رافيل، بناءً على طلبٍ عامٍّ، حفلاً مسائياً صغيراً. ولتنفيذ تلك المقطوعات القصيرة امتنع عن ارتداء زيّ عازفي البيانو الموحد ذي الذيل الأسود، مفضلاً لباساً مريحاً أكثر، بل هزلياً شيئاً ما. هكذا أدّى مقطوعته «استهلال»<sup>(1)</sup> التي كان قد ألفها قبل خمسة عشر عاماً، مرتدياً قميصاً مخطّطاً وبدلةً بمربّعات، مع ربطة عنقٍ حمراء. ثم عزف، يرافقه، بصعوبة، عازفٌ محليّ، أولٌ سوناتا ألفها للكمنجة والبيانو قبل ثلاثين عاماً. جالساً بخفةٍ أسفل لوحة المفاتيح التي لم تكن يدها تعلوانها بل تلامسانها على عرضها من أسفل إلى أعلى - وراحةً يده أسفل الملامس - كان يُنقل أصابعه المفرطة القصر، الكثيرة العُقد، العريضة قليلاً. ومع أنها كانت عاجزة عن الانتقالات السريعة المفاجئة، إلا أنها

---

(1) "Prélude".



كانت تضمّ إبهامين فائقتي القوة، كأنهما لحنّاق، يسهل لئيها، وهما مثبتان أعلى راحتيه، وفوق ذلك بعيداً جداً عن بقية اليد، ويكادان يضاهيان سبّابتيه طولاً. لم تكن يدها حقاً يديّ عازف بيانو، كما لم يكن يمتلك تقنيّة عزفٍ رفيعة، وكان ملحوظاً أنّه ليس متمرساً، إذ كان يعزف بتشنّجٍ، مرتكباً أخطاءً هيئته طوال الوقت.

إنّ ما يفسّر سوء تمكّنه من البيانو إلى هذا الحدّ هو الكسل الذي لم يبارحه منذ الطفولة، فهو الخفيف الوزن لم يكن يرغب في أن يتعب نفسه مع آلة ثقيلة جداً. كان يعلم أنّ عزف مقطوعة، خصوصاً إذا كانت بطيئة، يقتضي بذل مجهودٍ جسديّ يفضّل أن يُعفي نفسه منه. لذا وّجد أنّ من الأفضل تيسير الأمر على نفسه إلى حدّ أوصله إلى تأليف المصاحبة الموسيقية لأغنية «رونسار، إلى روحه» لكي تُعزف باليد اليسرى، لأنّه كان ينوي، هو نفسه، التدخين باليمنى. باختصار، كان عزفه رديئاً، لكن، كان يعزف! كان يعرف أنّه نقيضُ العازف البارِع، ولكنّ بما أنّ أحداً لم يكن يسمع شيئاً، فقد نجح الأمر.

عشيّة الوصول، وقبل ساعة تناول الشاي، طرق قائدٌ

السّفينة باب جناحه. جاء رافيل، مرتدياً سترة داخلية مشجّرة، ليفتح الباب لضابط البحريّة، الذي كان يحمل، تحت ذراعه اليُسرى وقد انحنى بعض الشيء، مجلّداً ضخماً لونه أحمر داكنٌ وحوافه مذهّبة. أدرك رافيل من فوره ما هو: سجلّ السّفينة الذهبيّ، الذي رجاه الرّبّان بطريقة لا تخلو من احتفاليّة أن يخطّ فيه بضع كلمات، فأجابه: بكلّ سرور.

بعد أن وضع القائد المجلّد على منضدة، فتحه بعناية ثم قلب صفحاته باحترام حتّى وصل إلى أوّل ورقة بيضاء، فأشار بها إلى رافيل. تراجع رافيل إلى الوراء واستعرض الصفحات السابقة، لكي يمنح نفسه الوقت لابتكار عبارة: بما أنّ «فرانس» في الخدمة منذ أبريل 1912، تاريخ تسلّمها، فقد امتلأت الصفحات بمئات العبارات الاحتفائيّة التي لمح رافيل أسفلها أسماء معروفة لديه إلى هذا الحدّ أو ذاك، وتنتمي إلى الأوساط الأكثر حضوراً في المجتمع الفرنسي -رجال السّياسة، والصّناعة، والمال، والدين، والفنّ، والأدب، والسلطات الدستورية والقانونية. تصفّح السّجل بفضولٍ ظاهرٍ، قاصداً على

وجه الخصوص أن يقرأ سريعاً العبارات المكتوبة، بحثاً عن واحدة قد تُلهمه، إذ لم يكن لديه أي فكرة عما يمكنه أن يخطّ فيه.

وفي تلك الأثناءٍ أدهشتهُ رؤية تنوع الإمضاءات. لو كان لدى رافيل ما يكفي من الوقت، لتسلى بتفحص خطوطها وأساليبها ليستنتج منها شخصيات أصحابها -وفقاً للطريقة القديمة التي حددها بالدي ثم طورها الأب ميشون، وكريبيو جامان، وآخرون. بعضهم اكتفى بأن يكتب ببساطة وعلى نحوٍ مقروءٍ اسمه الأول متبوعاً باسم العائلة، بخطّ تحته أو دون ذلك؛ وقد يأتي الخطّ أسفل التوقيع منفصلاً عن الاسم أحياناً، ومتصلاً به عبر مدّ الحرف الأخير منه أحياناً أخرى. ويحدث أيضاً، بواضع من تواضع أو هبةٍ بساطةٍ مفاجئة، إن لم يكن بفائضٍ كبرياء، أن لا تكون الحروفُ الأولى من الأسماء مدونةً بالحرف الكبير. كانت الإمضاءات من هذا النوع الذي يسهل فكّ مغاليقه قليلة، فالأغلبية كانت تتضمّن تجميلاً أسلوبياً لاسم العائلة، بهذا القدر أو ذاك من النجاح أو التعقيد، حيث استمتع أصحابها كما لو أنّهم وجدوا هنا

لمرة واحدة في حياتهم فرصةً للعب دور الفنان، فجاءت التواقيع في أغلب الأحيان رادعةً لأي أمل في قراءتها، إذ تمثلت في خطوط لا تنتهي حُلِّيت بحلقاتٍ وزخارفٍ وأشكالٍ حلزونيةٍ، وخطوطٍ ذاهبةٍ وآبيةٍ وانعطافاتٍ في كلِّ اتجاهٍ مثل متزلجين على الجليد تغتعمهم السكر، كما زينتها فواصلٌ وشرطات، حيثُ وصلَ تعقيدها لا إلى حدِّ استحالة فكِّ شفرة الأسماء التي يفترض أنها تجسدها وحسب، بل إلى استحالة تحديد اتجاه كتابتها، أو بأيِّ حركةٍ بدأ صاحبها عمله الفني الصغير حتى بلغَ منتهاه. وفي حالة الإمضاءات التي يصعب كثيراً حلَّ لغزها، خطَّت يدٌ أسفلها باحترام وبقلم الرصاص اسمَ صانعها. بدا لرافيل أنه أياً كان الحلُّ الذي اختير للتوقيع، فلا بدَّ أن ذلك كله قد استغرق وقتاً طويلاً ليُرسَم. أما هو فاكتفى بتحيةٍ سريعةٍ ورصينة، بخطِّه النزق الحاد، أعقبها اسمه الأول واسم عائلته، مقروءين بوضوح تام، بدون خطٍّ تحتها، وبالكاد مزينين بسيقان عموديةٍ وممتدةٍ في حرفيها الأولين المكتوبين بالحرف التاجي.

ما إن غادر قائد السفينة، حتى استغلَّ رافيل القلم

الذي ظلّ بين أصابعه في كتابة بعض الرسائل الموجزة، والتقليدية بعض الشيء إلى الأصدقاء، دون أن يتعب نفسه كثيراً. يفيد في إحداها، وكانت موجّهةً إلى دولاج<sup>(1)</sup>، بأنّه لم يستغلّ جناحه الفخم للعمل إلا قليلاً. وفي رسالة أخرى إلى رولان مانويل<sup>(2)</sup>، يفترضُ أنّه لم يسبق لأحدٍ أن قام برحلةٍ أجمل من رحلته في مثل هذا الفصل من السنّة. هذا علاوةً على رسالةٍ صغيرةٍ إلى هيلين وأخرى إلى إدوار. أتمّ ذلك سريعاً، ثمّ بدّل ملابسه مرّةً أخرى قبل أن يدسّ تلك الرسائل في مغلفاتها ليوصلها إلى مكتب الاستعلامات، حيث يُجمع البريد ثمّ يُرسل في طائرةٍ مائيّةٍ تنطلق من سطح الباخرة الخلفيّة. وبما أنّ الرحلة كانت تقارب نهايتها، كان على رافيل أن يُعدّ حقائبه قبل أن يملأ البيانات الجمركيّة.

وفي المساء، عند العشاء، سيجري ما هو معتاد في مناسبة كهذه: تبادلُ عناوين، وخططٌ للقاء ثانيةً، وأنخابٌ

(1) Maurice Delage (1879-1961): موسيقيّ فرنسيّ من تلاميذ رافيل وأصدقائه.

(2) Rolland Manuel (1891-1966): مؤلّف وباحث موسيقيّ فرنسيّ، تلميذ رافيل وصديقه وكاتب سيرته.

متكررة. وبعد ذلك يمضي الجميع إلى النوم عدا أولئك الذين سيفضلون البقاء إلى آخر لحظة في البار أو الخروج عند الفجر إلى سطح الباخرة ليتنشقوا أولى روائح الأرض الأميركية، وليتأملوا عما قريب إبحار الربان صوبَ فنار أمبروز لايت، قبل أن يبرز للعيان تمثال الحرّية، ويبدأ صعودُ بحيرة هدسون. غير أنّ رافيل، وقد عاوده الأرق، أغلق كتاب «السهم الذهبي» بعد أن قرأ مرتين أو ثلاثاً آخر جملة منه: «ولكنّ أيّ شيء آخر كان بوسعك أن يفعل، في الحقيقة؟»

في نيويورك، في صباح الرابع من يناير، انتظرت لجنة استقبال رافيل على رصيف الميناء. كانت السماء الصافية تكتنف شمساً باردة. وكان هناك عددٌ من ممثلي الشركات الموسيقية، ورؤساء الجمعيات، وممثلان للبلدية، وحشدٌ من المصورين الصحفيين يرفعون ومضات ضخمة، وصحفيون يحملون دفاتر ملاحظات، ويعلقون بطاقات هويتهم الصحفية أسفل أشرطة قبعاتهم، ورسامو كاريكاتير، ومصورون سينمائيون. من أعلى السطح الصغير، لم يعرف رافيل في البداية أحداً من كل أولئك الناس، ثم ما لبث أن لمح شميتر، الذي كان قد أدى عمله «تريو»<sup>(1)</sup> قبل عشر سنوات - وقد تعرّف رافيل على هيلين

(1) *Trio*: مقطوعة لثلاث آلات (البيانو والكمنجة والتشيلو) في سلم لا الكبير، كتبها رافيل في 1914.

في تلك المناسبة-، شميتر الرائع الذي تكفل بتنظيم الجولة الأميركية كلها. وحين عرف، ليس بعيداً عن شميتر، بوليت ناتانسون ابتسم لهما ابتسامة عريضة، ولوح بيده، ثم انحنى متكئاً على الدرازين، حين لم يعد قادراً على الاحتمال، وصاح: سَترَيانِ رِبَطاتِ العنقِ المُذهلةِ التي جلبتُها!

ما إن نزل رافيل من السفينة «فرانس»، حتى هرعوا إليه وسط نظرات الحسد من مسافري الدرجة الأولى الآخرين الذين ما كان ينتظرهم أحدٌ سوى عائلاتهم، في أحسن الأحوال. صافحوه بطريقة بدت له خاليةً من التكلف. ثم ألقى ثلاث خطبٍ موجزةٍ لم يفهم منها شيئاً، لأنه لم يكن يعرف لغةً أجنبيةً غير الباسكية. فهو وإن كان قادراً بمشقة على السؤال عن طريقه بالإنجليزية إلا أنه على كل حال لن يفهم الجواب أبداً- لكن منذ اللحظة، لن يكون هذا الوضع وارداً؛ فهم لا يفارقونه، ولن يفارقه خلال الأشهر الأربعة القادمة، بل إنهم في بعض الأحيان لن يدعوه يخلو بنفسه كفايةً. لقد اصطحبوه إلى سيارة بيرس آرو طويلة، سوداء، مكشوفة السقف، لم يسبق قط أن رأى



مثلها في الأفلام، نقلته إلى فندق لانغدون، حيث حُجزت له شقة في الطابق الثامن.

أمضى رافيل يومه الأوّل في مقابلات صحفية ولقاءاتٍ مختلفة، مصحوباً طوال الوقت بمدير أعماله وبعازف الكمنجة الأوّل في فرقة بوسطن السيمفونية الذي قام بدور المترجم، فيما لم يتوقّف سيلُ سلال الورد والفاكهة إلى فندق لانغدون، وتراكت الباقات حتى لم يعد هناك ما يكفي من المزهريات لاحتوائها. أمّا الأيام الأربعة التالية، فقد أمضى رافيل جُلّها في سيارات الأجرة، مُنطلقاً إلى كلّ ضربٍ من المواعيد والبروفات والدّعوات وحفلات الاستقبال. كانت واحدةً من هذه الحفلات مُرهقةً على نحو خاصّ، حيث توافد عليه ثلاثمائة شخصٍ مجهول، في بيت زوجة المخترع إديسون، متحدّثين إليه بالانجليزية. أمّا حفل نيويورك، فقد كان ذروة المجد، حيث وقف ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص ليصفّقوا له لمدة نصف ساعة، ويرموه بكثيرٍ من الورود الجديدة والقبلات، صارخين ومطلقين الصّفير باهتياج، كما يفعلون عادةً في هذا البلد حين يتملكهم الرضا، حتى إنهم اضطرّوه للصعود إلى

خشبة المسرح، الأمر الذي لا يجتذبه كثيراً، من حيث المبدأ. وفي المساء، عاد رافيل إلى الفندق منهكاً، في وقت متأخرٍ جداً، بعد جولةٍ في المراقص، وصلات السّينما العملاقة، ومسارح السّود.

ثمّ بدأت جولته عبر الولايات المتّحدة. بعد حفل كامبردج الموسيقيّ الذي أعقبه حفلُ استقبال، كان عليه أن يسرع، مُرتدياً بذلته السّموكن، ليُلحقَ بالقطار المغادر إلى مدينة بوسطن، حيث نزل في فندق كوبلاي بلازا، الذي حقّق حفله الموسيقيّ فيه نجاحاً كبيراً. مرّةً أخرى صافح ثلاثمائة يدٍ، وتلقّى عبارات تؤكّد على محبّته، وأحياناً على أنّه يبدو إنجليزيّاً، هذا قبل أن يجرّوه إلى نادٍ ليليٍّ أو إلى أحد مسارح خيال الظل. حدث الأمر ذاته حين عاد إلى نيويورك؛ إلى قاعة كارنيجي، ثمّ تواصلت الاحتفالات المخمليّة على شرفه مع بارتوك، وفاريز، وغيرشوين، في منزل عائلةٍ راقيةٍ في ماديسون أفينو، طلبت منه أيضاً أن يعزف لها شيئاً. فعزّف، بالطبع، وسيعزف بلا توقّف في قاعات الحفلات الموسيقية، والأمسيات الخاصّة، حيث سيضطرّ أحياناً، وبشيء من الرهبة، إلى قيادة العازفين.

ولن يتوقف ذلك.

لقي رافيل الاستقبال ذاته في شيكاغو، تحت الثلج، إلا أنه رفض في اللحظة الأخيرة أن يعزف، حين لم يعثر على الحقيبة التي تحتوي على حذائه اللبّاع، الذي يرفض الظهور من دونه، فليس من الوارد أن يرتدي حذاءً عادياً مع زيّه كقائد أوركسترا. هُرعت إحدى المغنيات إلى محطة سيارات الأجرة لاستعادة حقيبته من مستودع الأمانات الآليّ، فبدأ الحفل متأخراً نصف ساعة، لكن ذلك لم يغيّر من الأمر شيئاً: احتفاءً جديد أعقبته تحيةٌ صاحبةٌ أداها عازفو الآلات النحاسية في الفرقة حين عاد رافيل للظهور لتحية الجمهور في نهاية الحفل. والاستقبال ذاته في كليفلاند؛ احتفاءً صاحبٌ مرّةً أخرى، مع ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص جديد وقفوا لتحيتته. كان يلقي الاستقبال الرائع ذاته في كلّ مكان. بدت الأمور جيّدةً على الأرجح، عدا أمر صغير واحد: الأكل السيئ، إلى درجة أن رافيل أنهى السهرة مبكراً في شيكاغو، حيث كان مدعوّاً إلى العشاء عند سيّدة مليارديرة، عائداً إلى الفندق بسرعة، في البرد القارس والريح التي يُضرب بها المثل، ليطلب طبقاً من

شرائح اللحم. كان هنالك أمر صغير آخر: عدم النوم. فالحياة التي جعلوه يعيشها لم تُتَح له القليل من النوم إلا في القطار، وليس دائماً.

لحسن الحظ، لم تكن تنقصه القطارات، كما زاد في حظّه السعيد أنّه سيذرع، في عرباتِ قطار فاخرة، قارة أميركا الشماليّة، في كلّ الاتجاهات؛ فقد أعدّوا له مساراً لا يُصدّق. كان مساراً مربكاً بقدر ما هو مربكٌ مسار ذبابةٍ في الهواء، جعله يمضي من المناطق الجليديّة إلى الاستوائيّة، في رحلاتٍ ذهابٍ وعودةٍ مجنونة، ومحطات توقّفٍ غير أكيدة، وتحويلاتٍ غير متوقّعة، عبر المدن الخمس والعشرين التي مرّ بها.

لقد واصلت قطاراتٌ تحمل الأسماء: زيفير، هياواثا، أمباير ستيت إكسبرس، صن سيت ليتمد أو سانتا في دي لوكس، واصلت، على طريقتهما، ضمان الرفاهيّة التي وجدها على متن الباخرة «فرانس». كانت تلك القطارات، برفاهيّتها التي للبواخر عابرة البحار، فنادق باذخة تتكوّن من خمس عشرة عربّة تزن الواحدة ثمانين طناً، زوّدت مقدّمة قاطرتها المرتمّة، التي لها هيئة صاروخ، بمصباحٍ

مركزيّ هائل. وتقدّم العربات فيها كلّ الخدمات الممكنة: مكاتب لرجال الأعمال، مرقص وصالة سينما، صالونات للحلاقة وللعناية بالأظافر، استشارات خبيرات تجميل، قاعة حفلاتٍ موسيقية تضمّ آلات الأرغن من أجل قدّاس الأحد، مكتبة، وأكثر من بار. أمّا المقصوراتُ التي كانت تغصّ بالخشب النفيس والسجاد والزجاج المعشق والستائر، فقد جُهّزت بأسرة مُظلّلة وبأحواض حمام مزودة، حسب الاختيار، بالماء العذب أو بهاء البحر. وفي ذيل القطار، عربة بانورامية تفتح على إطلالة أُعدّت كُشرفةٍ تعلوها قبة.

وصل رافيل إلى كاليفورنيا، على متن «سان فرانسيسكو أوفرلاند»، في نهاية يناير. ارتاح قليلاً بعض الوقت، كان برنامجه أقلّ ازدحاماً، حيث هدأت الأمور نسبياً. فكان إن لم يحاول النوم تحت مظلة سريره، يمضي وقته في نادي القطار. ومن سان فرانسيسكو انطلق إلى لوس أنجلوس. سمّحت له عذوبة الهواء بأن يستقرّ في الشرفة الخلفية، حيث لديه الوقت كلّهُ ليتأمل منظر الطبيعة. في ظلّ الأشجار الكبيرة التي تبدو كأنّها أشجار بلوطٍ فيما هي

في الحقيقة أشجار البهشيّة، كان القطار يخرق غابات من الأوكالبتوس، متلوّياً بين جبال يتنوّع شكلها، بين صخرية صفراء وخضراء ناضرة. وعلى مشارف لوس أنجلوس، اجتاز القطار ضواحي سكنية متناثرة، حيث كل بيت أُقيم هنا، بين مسافة وأخرى، يمثل حكاية، وأحياناً حكاية مع بركة سباحة؛ إنّه لا يروي حكاية، بل هو حكاية في حدّ ذاته. أمّا الدكاكين القليلة التي نلمحها، فهي دميّ صغيرة مُتعدّدة الألوان، من ذلك النوع الذي يحبّه رافيل.

في لوس أنجلوس، قدّم حفلاً في قاعة فندق بالتيমور، الذي أرسل منه إلى أخيه إدوار بطاقة بريدية تُمثل ناطحة السحاب تلك، وقد ثقبها بدبّوس، وكتب على ظهرها مُوضّحاً أنّ وجه البطاقة يمثل الفندق، والثقب يمثل غرفته. الأمور هنا أفضل بكثير ممّا هي في شيكاغو، ففي لوس أنجلوس يسود الصيفُ في أوج الشتاء. إنّها مدينة غارقة في الورد، الذي ينبت عندنا في الدفيئات؛ لكنّه هنا يحفّ بالشوارع تحت درجات حرارة تُقارب المائة فهرنهايت، كما أنّ أشجار النخل العظيمة هي في موطنها هنا. وبما أنّ رافيل كان هناك، على بعد ساعةٍ من هوليوود

فقد انتقل إليها، في سيارةٍ من طراز ستوز بيركات، مكشوفة السقف هي الأخرى ولكن هذه المرّة بهيكل باللّونين الأحمر العقيقيّ والبنفسجيّ، وبإطاراتٍ جوائبها بيضاء اللون، وقام بجولة التقى خلالها ببعض النجوم: دوغلاس فيبربانكس الذي يتحدّث الفرنسية، وشارلي شابلن الذي لا يتحدّثها. لقد تسلّى كثيراً مع تلك الرّفقة، محافظاً على الدوام وبشكلٍ مدهشٍ على مزاجٍ رائقٍ، مع أنّ النجاح كان مُتعباً والأكل رديئاً كالعادة.

على متن قطار «ساذرن باسيفيك» قادم من بيرث، توجّه رافيل أولاً إلى سياتل ماراً ببورتلاند وفانكوفر، ثمّ غادر على متن قطار «يونيون باسيفيك سيستم» مدينة دنفر، حيث مناجم الذهب والفضّة، والشمس، والهواء النقيّ، والعلوّ، إلى مينيابولس عن طريق كانساس سيتي. وقد خشي، إذ بدت السماء تتلبّد بالغيوم، أن يواجه ثانيةً الأسبوع القادم هواء نيويورك القارس.

لم يكن الجوّ فيها بالبرودة التي توقعها حين احتفل بعيد ميلاده الثالث والخمسين في السابع من مارس، مع عددٍ غير قليلٍ من الأشخاص من بينهم غيرشوين، الذي أراد

رافيل لقاءه ثانيةً لِسَمَعَهُ يعزف «الرَّجُلَ الَّذِي أَهْوَى»<sup>(1)</sup>. بالطبع، استجاب الآخر، مسارعاً بعد العشاء إلى أن يطلب من رافيل أن يعطيه دروساً في التأليف الموسيقي؛ لكنّه رفض رفضاً قاطعاً، مبيّناً له أنّه قد يفقد عفوية أُلحانه، ومن أجل ماذا، أنا أسألك؟ فقط لتقدّم نسخة رديئة من رافيل. كما أنّه لا يحبّ أن يتخذ تلاميذ. أمّا غيرشوين، فيبدو أنّه لم يكتفِ بنجاحه العالميّ، فهو يطمح إلى ما هو أعلى، لكنّ تعوّزه القدرات، ولن نثقل كاهله بمنحه إياها. باختصار، تهزّب رافيل من الأمر. كان مُتزعجاً إلى حدّ بعيد؛ فعلى الرّغم من أنّهم اعتنوا -وقد بدأوا يعرفونه- بتجهيز عشاءٍ من شأنه أن يعجبه، خصوصاً اللّحم الأحمر الذي يحبّه غير ناضج، قدّّم له، كما يحدث دائماً هنا، ناضجاً أكثر ممّا ينبغي بكثير.

بعدها بيومين، حين انطلق رافيل إلى الجنوب على متن قطار «كريسنت ليمتد»، وجد نفسه وسط حرارة صيفٍ جميل، مع أنّ الفصل ربيع، حتّى إنّّه لم يستطع البقاء في مقصورته إلاّ بالقميص من دون سترة، أمام المروحة التي

(1) *The man I love.*



جعلها تدور بسرعتها القصوى. كان الجوُّ أقلَّ حرارةً في الشُّرفة الخلفيّة، حيث تكاسل رافيل طيلة النهار، ثمّ جلس بعد العشاء في النادي ليكتبَ بعض الرسائل شارحاً فيها تفاصيل مسار رحلته المعقّد: سيذهب أولاً في جولةٍ إلى نيو أورليانز، حيث سيأكل سمكاً يُطبخ في أكياسٍ ورقيةٍ ويشرب نبيذاً فرنسيّاً على الرغم من تحريمه -ولكن لو أنّهم يعرفون حقّاً معنى التحريم! عند الساعة الحادية عشرة، حين بدأ النادي يخلو من المرتادين، عاد إلى مقصورته في الطرف الآخر من القطار.

ومع أنّ الجوُّ في نيويورك تحوّل إلى الدّفء مبكراً، فإنّ إزهار التّبات فيها كان أقلّ منه في نيو أورليانز، التي لم يُمض فيها سوى نصف نهار، قبل أن يعود إلى هوستون ليقدّم حفلين موسيقيّين. خلال البروفات، أثار انتباه العازفين بقوة، بتنسيقه على نحو مختلف، بين عشيةٍ وضحاها، لون قميصه ولون حمالاته: وردية تارةً وزرقاء تارةً أخرى. سار كلّ شيءٍ سيراً حسناً هذه المرّة أيضاً، أو هذا ما بدا له على الأقلّ، مع أنّه لم يسأل نفسه إن كان الاستقبال الذي حظي به يعكس بدقّة الشعورَ بالنجاح الذي يجتاحه منذ أربعة

أشهر؛ ذاك الشعور الذي جعله يبدو لا مبالياً إلى حدّ ما، وأكثر استرخاءً في طريقة عزفه الضعيفة أصلاً. كان يظنّ أنّ ذلك لا يظهر للعيان، بل إنّهُ لم يفكّر فيه، غير أنّهُ قد ظهر، من دون أن يعرف، ولو عرف بذلك لما اكرث.

قبل الحفل الثّاني، أعطى محاضرةً في الكاتدرائية الاسكتلندية، بيّن فيها أنّ تأليف الموسيقى عنده يحتاج، عموماً، إلى فترة مخاض طويلة ينجح خلالها بالتدرّج، ولكن بدقّة متزايدة، في رؤية مسار العمل القادم وشكله، وقد ينشغل به على هذا التّحوّل لسنواتٍ دون أن يكتب نوتة واحدة، ثمّ يُنجز الكتابة بسرعة، غير أنّهُ يظلّ هناك مزيد من العمل للتخلّص من كلّ ما هو زائد، قبل الوصول، ما أمكن، إلى الوضوح النهائيّ المنشود.

بعدها، استقلّ رافيل سيّارةً ومضى لزيارة خليج المكسيك قبل أن ينتقل إلى غراند كانيون حيث أمضى أسبوعاً مستقرّاً في فونيكس، ثمّ غادر على متن قطار كاليفورنيا ليمتد إلى بافالو، في الطّرف الآخر من القارّة. ثمّ، ولنختصر، عاد إلى نيويورك وبعدها إلى مونتريال ومن هناك مضى لتقديم حفلاتٍ أخرى في تورنتو، وميلووكي،

وديترويت، ثم قفزةً أخيرةً إلى بوسطن، ومرورٌ أخير  
بنيويورك، التي أبحر منها إلى باريس عند منتصف الليل.  
وصل رافيل عائداً إلى لوهافر في 27 أبريل. كان بصحةٍ  
جيدة، وعلى الأخص، كانت حقيته الزرقاء الصغيرة  
التي فرغت من سجائر الغولواز تحتوي في تلك اللحظة  
على سبعة وعشرين ألف دولار. على الرصيف، كانت  
العصابة كلها حاضرة، تترقب عودته: إدوار، وعائلة  
دولاج، وكذلك هيلين، بالطبع، دائماً بصحبة مارسيل  
جيرار ومادلين غري. انحنوا أمامه مقدمين له باقةً وردٍ  
بطوق من ورق الدنتيلا ذي حاشية مزخرفة. جذلاً، وجد  
رافيل أن من الطبيعي أنهم جاؤوا من لوهافر لاستقباله  
ولم يخطُر له للحظة أن يشكرهم على ذلك، مُكتفياً فقط  
بالقول: وددتُ لو أنكم لم تأتوا!

عند العودة إلى مونفور لاموري، كان الجو ربيعاً فرنسيّاً، تقليدياً ومعتداً، يختلف عن غرابة أحوال الطقس الأميركية. إذ استقبلته، حتّى قبل أن يفتح باب بيته، أسرابُ طيور كانت تُجوّد غناءها فوق رأسه. من أبي الحنّاء إلى القرقف، كانت عصافير صغيرة كثيرة تبخ أصواتها، بين الأشجار، صادحة بأناشيدها التي يعرفها رافيل كما يعرف راحة يده، كلّ ذلك تحت رقابة لصيقة من قطيه السياميين.

أمّا البيت، فعبثاً كان يطلّ إطلالة رائعة على الوادي، كان شكله غريباً، على هيئة أنف حادّ يُشبه قطعة جبن مثلثة، بحيث تبدو قمّته مختلفةً حسب موقع الناظر إليه، من الشارع أو الحديقة. ويتألف البيت من خمس غرف

أو ستّ، ضيّقة كالأعشاش، يربط بينها درجٌ رفيعٌ وممرٌ لا يتسع لأكثر من شخص واحد. وبما أنّ رافيل نفسه لم يكن طويل القامة، فإننا قد نسخر من رغبته في أن يسكن على «قده»، لكننا سنكون مخطئين أولاً، لأنه عثر على ما سمحت به إمكانيّاته الماليّة المحدودة. فهو لم يكن غنياً، بل كان عليه دائماً أن يحسب تكاليف الأمور جيّداً، وما كان ليستطيع شراء هذا البيت لولا التّركّة البسيطة التي ورثها عن عمّه السويسريّ، ثمّ إنّ الإطلالة هي تحديداً ما جعله يحسم قراره؛ الإطلالة على الوادي الذي نكتشفه من الشرفة: أفق يكاد يكون مستقيماً تحت سماواتٍ متقلّبة، وموجات أفقيّة طويلة من التلال المتعاقبة، وتموجات من الأعشاب والغابات، وحزم من الأشجار المنتظمة، وأجزاء من الأسيجة.

كان المسكنُ الصّغير نفسه يغمّص بالأشياء الصّغيرة: مُنمناتٍ من كلّ نوع، وتماثيل صغيرة، وتُحفٍ، وصناديق موسيقى، ودمى بزبركات: صينيّ يُخرج لسانه عند الطّلب، وعندليب ميكانيكيّ ضخّم بحجم كرة زجاجيّة، يرفرف بجناحيه مغنياً حين نشاء، وقاربٌ شراعيّ يتمايلُ

حسب الرّغبة فوق أمواج كرتونيّة، وزخارف بلوريّة ودمى في أباريق<sup>(1)</sup>، وأزهار خزامى من الزّجاج المصهور، وورود بيتلات ذات مفاصل، وصناديق من البلّور التّساويّ الملّون، ونموذج مصغّر لأريكة عثمانيّة من الخزف المسنّن. وعلاوة على ذلك، كان البيت مجهّزاً بكلّ وسائل الرّاحة الحديثة: مكنسة كهربائيّة، وفونوغراف، وهاتف، ومذياع.

بعد تفقّد المنزل وفتح ستائر الصالون التي من قماش التّفّتا، وتلك التي من الحرير الأخضر في غرفة السّفرة، وبعد إفراغ خزانة الثياب ثمّ إعادة ترتيبها، تبخّرت سريعاً متعة الشّعور بالعودة إلى البيت. إذ سرعان ما يشعر المرء بأنّه بلا قوّة، لا يدري ماذا يفعل بنفسه، حيث فرط التعب من السّفر أكبر من أن يجعله يفكر في أن يستريح، ويحول التوتر دون ذلك. وعلى كلّ حال، ليست الخامسة والنّصف عصرّاً باللحظة المناسبة لمحاولة النوم، لن ينجح في ذلك، وإنّ نجح لكان ذلك أسوأ. كما أنّه ليس من

(1) دمي تغطس في سائل داخل أباريق أو أوعية زجاجيّة مغلقة، تعلق وتهبط حسب ضغط هذا السائل.

الوارد أن يفتح كتاباً أو يجلس خلف البيانو، إنه لا يملك القدر الكافي من التركيز للقيام بذلك. ولا شيء ينبغي توضيحه في البيت، لا حاجيات ينبغي أن يذهب إلى السوق لشرائها؛ فاستباقاً لعودة سيدها، كانت السيدة ريفلو قد رتبت البيت جيداً، وأعدت تشغيل التدفئة وأعدت ما يلزم من طعام في المطبخ. بالطبع، كان هنالك كل ما خصته به الصحافة الأميركية من مقالات خلال الشهور الأخيرة، كانوا قد اقتطعوها له، فاحتفظ بها من دون أن يفهم ما تقول. جمعها كيفما اتفق في ألبوم، لكنه أتم ذلك بسرعة. بقي إمكان القيام بجولة في الحديقة، وهي فضاءٌ مثلث الجوانب، غزير العشب، مقوس كرافعة التهدين. لكن رافيل جاهد عبثاً في ذلك اليوم للبقاء محافظاً على انتباهه المعتاد في تلك الحديقة، فهو بات لا يكاد يراها، ولا يكاد يهتم بالأعمال التي نفذها البستاني في غيابه. لكأنه بدأ يشعر بالضجر.

يعرف رافيل الضجر جيداً، فهو حين يقترن بالخمول، يمكن أن يدفعه إلى ممارسة لعبة الخيط والبكرة لساعات، أو مراقبة نمو أظافره، أو صنع أطباقٍ من ورق أو تشكيل

بطّ من فُتات الخبز، أو جردِ مُقتنياته من الأسطوانات الموسيقيّة، لا بل وتصنيفها؛ مجموعته تلك التي تبدأ بالبينيث وتنتهي بفيبر، من دون المرور ببتهوفن، وإن كانت لا تستثني فانسان سكوتو، ولا نويل نويل أو جان ترانشان. على كلّ حال، إنّه لا يستمع إلى هذه الاسطوانات إلّا نادراً. وحين يقترن الضّجر بغيابِ أيّ مشروع، فإنّه غالباً ما تُرافقه نوباتٌ من الإحباط، والتشاؤم والغمّ، تجعله في تلك اللحظات يلوم والديه بمرارةٍ على أنّهما لم يختارا له العمل في مجال الأغذية. لكنّ ضجر تلك اللحظات، وقد خلا أكثر من أيّ وقت مضى، من أيّ مشروع، بدا ملموساً وضاعطاً أكثر من المعتاد؛ إنّه كسلّ مرّضي، انفعاليّ، قلقٌ؛ يخنقه فيه الشعورُ بالوحدة على نحو أشدّ إيلاماً ممّا تفعل ربطة عنقه المنقّطة. لا أرى إلّا حلّاً واحداً: الاتّصال بزُغيب<sup>(1)</sup>؟ على الرقم 56 في مونفور. عسى أن يكون موجوداً.

على الهاتف، هلّوليا! زغيب موجود. سرّهما تبادلُ الكلام وسماع كلّ منهما الآخر. وسيلتقيان، بالطبع.

(1) كاتب مسرحي مغمور من أصولٍ مصريّة. كان صديقاً وجاراً لراييل وكان يتردّد إليه في بيته بانتظام في سنواته الأخيرة.



ولكن لم لا يكون على الفور؟ بعد خمس دقائق، التقيا على رصيف أحد المقاهي، بالقرب من الكنيسة، أمام زجاجة فرموت كاسيس<sup>(1)</sup>. روى رافيل رحلة أميركا للآخر الذي كان يتحرّق شوقاً لذلك. نحن لا نعرف ما يفعل جاك دو زُغيب. يبدو أنه يكتب، لكننا لا ندري أبداً ماذا يكتب. إنه رجل ذو شعر أسود لامع، وبشرة كامدة، أطول قليلاً من رافيل لكنه أقوى منه بنيةً، وهو مثله شديد العناية بهندامه. كانت فضيلة العلاقة مع زغيب أنه يكاد لا يفقه أي شيء في الموسيقى، وهكذا كان يمكن النقاش معه في أمورٍ أخرى. ولكن بما أنه لم يكن يطلب، في ما يخص الموسيقى، إلا أن يتقن نفسه، فقد كان في وسع رافيل الحديث بحرية أكبر، كما حدث حين سأله زغيب من يكون شوبان، في الحقيقة؟ فأجابه رافيل وهو يسحق عقب سيجارته، الأمر بسيط جداً، إنه أعظم الطليان<sup>(2)</sup>. وبما أن وقت شرب الفرموت

(1) نبيذ أبيض معطر مع مشروب الكشمش.

(2) في إجابة رافيل مزاح مقصود، فمن المعلوم أن كبير الموسيقيين الرومنطيين فريدريك شوبان (1810-1849) كان بولندياً من أصل فرنسي وأنه، بعدما تعلم الموسيقى في وارشو، هاجر إلى فرنسا وأمضى فيها أغلب سني حياته.

كاسيس لم يكن كافياً للانتهاء من قصّة أميركا، فقد دعاه زغيب إلى العشاء، ثم دفعه الشعور بالتعب الناجم عن فزق التوقيت، الظاهرة التي لم يكن قد عرفها حتى تلك اللحظة، إلى العودة إلى البيت حوالي الساعة الحادية عشرة. حين عاد، نزل على غير عادته إلى غرفة نومه مباشرة، عوضاً عن التجوال في البيت حتى آخر الليل، فكان النعاس قد غلبه. لكنّ الشعور بالنعاس، كما نعلم، لا يعني العثورَ عليه بالضرورة، فالتعب المفرط قد يمنع المرءَ من النوم. مع ذلك، أطفأ النور، لكنّه عاد لإشعاله بعد ربع ساعة، وتناول كتاباً فتحه دون جدوى، فأطفأ النور ثانيةً، ثمّ أشعله غير مرّة بعد أن تقلّب في سريره في كلّ اتجاه. لقد بتنا نعرف ذلك. على كلّ حال، لم يسبق قطّ أن نام جيداً، فهو يتأخر في معظم الأحيان في الإخلاء إلى السرير، دون أن يكون النعاس في انتظاره، وما إن يدركه، حتى يستيقظ على وجه السرعة. ليس ذلك بالأمر الجديد، وهو ما دفعه لمحاولة تطوير بعض التّقنيات من أجل الوصول إلى النوم:

تقنية رقم 1: اخترع حكايةً ونظّمها، أخرج مشاهدتها بالتفصيل، وبأكبر قدر ممكن من الدقة، مع الاعتناء بتهيئة العناصر الملائمة لتطورها. تخيّل الشخصيات دون أن تنسى نفسك بوصفك الممثل الرئيس، جهّز الديكورات، وزّع الإضاءة، فكّر في الأصوات. حسناً. فلتدخل الآن في هذا السيناريو، فلتطوّره ولتسيطر عليه بطريقةٍ محكمةٍ إلى أن ينقلب الوضع، فيكتسب حياةً مستقلةً ويستولي عليك، ليصنّعك في النهاية كما ابتكرته أنت. هكذا، في أحسن الأحوال، تفيد هذه الحكايةُ بما يُقدّم لها، تستقلّ بنفسها وتتطوّر وفقاً لقوانينها الذاتية، لتصبح حلماً قائماً بذاته، والحلم يعني النوم، فهياً!

اعتراض: جميلٌ هذا كلّهُ، ولكنّ تخيّل أنّنا نستطيع توقع النعاس يعني أنّنا نجهل حقاً ما هو. قد يكون بمقدورنا، في أقصى الأحوال، أن نحسّ بأنّه يغشانا، لكننا لا نستطيع رؤيته إلاّ بقدر ما نستطيع التّحديق في الشمس مواجهةً. إنّه هو من يسيطر عليك من الخلف أو من حيث تتعدّر رؤيته، فالمرء لا يقارب النعاس وكأنّه جنديّ حراسة، يترصد، ويده على جبينه، انبثاق الرؤى النعاسيّة -مربّعات،

حلزونيات، كوكبات - التي عادةً ما تُبنى بقدمه. إننا نبحث عن تلك الرؤى، نحاول أن نحققها، حتى تتتابع أمامنا، ثم تتوارى، وتمتّع، وتنتظر لحظة أن نتخلّى عنها لكي تقرر الهجوم. أو لا. خلاصة الكلام.

بعدها بثلاثة أسابيع، كانت السماء ملبدة بالغيوم حين وصل خمسون ضيفاً إلى مونفور يومٍ أحد، لكي يسلموا لرافيل، في احتفال باذخ، تمثاله النصفى الذي نحته ليون ليريتز. انتشروا بدايةً في أرجاء البيت الذي كان في حالة فوضى إلى حدّ ما، ولكن، كالعادة دون أيّ شيء على مكتب رافيل، الذي كان شديد الحرص على أن لا يخلف وراءه أية علامة تتعلق بالعمل. لا قلم رصاص، لا ممحاة، ولا ورقاً مسطّراً على طاولته أو أسفل صورة أمه أو على البيانو من نوع «إيرار» الخاصّ به، المغلق على الدوام حين يأتيه ضيوف - لا شيء في اليدين، لا شيء في الجيوب، مثل السّاحر. ثمّ انتقل الضيوف، على الرغم من الجوّ المكفهر، للجلوس في الخارج وتناول كأس من الشّراب. بالقياس إلى البيت، لم تكن حديقة واسعة، لكنّها نظّمت جزئياً على طراز الحدائق اليابانية، في سلام

ودروبٍ متعرّجةٍ بين المساحات العُشبية، وممراتٍ تحفُّها  
الأزهارُ النادرة والأشجار القزّمة، تلتقي عند حوضٍ  
تتمايلُ فيه نافورة مياهٍ نحيلة.

كان هنالك، إضافةً إلى هيلين، بالطبع، وليريتز؛ الشابُّ  
اللّطيف ذي الصّوت الناعم، المتصنّع قليلاً، عددٌ لا بأس  
به من أناس لا تعرفونهم بالضرورة، مثل رينيه كيردك،  
سوزي فيلتي أو بيار أوكتاف فيرو، ناهيك عن آخرين  
قد تكونون سمعتم بهم مثل أرتور هونيغير، ليون بول  
فارغ، أو جاك إيبيير؛ باختصار، الأصدقاء المعتادون. ومن  
بينهم الشابُّ روزنتال، الذي كان عليه، وهذه هي وظيفته  
المعتادة، أن يضخّ الماء إلى آلة صنع الثلج طيلة ساعاتٍ من  
أجل تبريد المشروبات. وبما أنّ رافيل كان قد أعلن نفسه  
خبيراً في مجال الكوكتيل، فقد أمضى وقتاً طويلاً جداً في  
القبو، ليصنع خلطاتٍ غريبة ظلّت تركيباتها سرّاً، وقد  
أطلق عليها أسماء «أندلسيّ»، فيفي، أو فالنسيا، وتوجب  
شُرب العديد منها قبل الاستعداد للالتقاط صورة: هو،  
الصّارم كالعادة، كان من النادر أن يُرى في زيّ كهذا؛  
بقميص بلا سترّة، مشمّر الكمّين، وسيجارته الغولواز

دائماً في يده، فيما اليد الأخرى في جيبه، محاطاً بخمس نساءٍ جميلاتٍ، بشوشاتٍ جدّاً، وحده لا يتسم بينما يبدو أنّ ضيوفه يستمتعون إلى حدٍّ بعيد: فقد لعبوا «الغميضة» بعد العشاء الذي تخلّله الكثير من الشرب، ثمّ أدّى رافيل، الذي كان في أفضل حالاته، بعد أن استعار قُبعة هيلين ومعطف السيدة جيل مارشيكس، بضع خطواتٍ راقصةً، وسط الهتاف له. ثمّ أنهوا، على ما يظهر، ذلك الأحد الرائع في نادٍ ليلى.

أو أنّهم لم يفعلوا، وفقاً للجيران، الجيران دائماً: فبعد يومين، جاء زغيب لتناول العشاء عند رافيل فوجده في المطبخ مع السيدة ريفلو؛ بقامتها القصيرة، وثيابها السوداء، وكتفيتها المائلتين إلى الأمام، ووجهها المتبلّد، منشغلةً بأفرائها وقد أدارت ظهرها، وبدت عليها علامات الاستياء. ولما بدا أنّ سيّدها غاضبٌ هو أيضاً، فقد استفسر زغيب عما يجري. فسأله رافيل بفضاظة: قل لي، هل حدث يوماً أن روى الناس عنك أشياء مزعجة؟ فردّ زغيب أنّه لا يدري عن ذلك شيئاً وأنّ الأمر، في الحقيقة لا يهّمه. وعني أنا، ألم تسمع شيئاً، قال رافيل؟ الحقيقة، أخشى أنّ

الجواب هو نعم؛ بعض الأمور، في الواقع، اعترف زغيب. أية أمور؟ تساءل الآخر. حسناً، يبدو أنّك قد دعوت إلى بيتك، أوّل أمس، خمسين شخصاً لتدشين تمثالك النصفيّ، وهو أمرٌ يصعبُ تصديقه نظراً لحجم البيت. هذا صحيح، أقرّ رافيل. ليس هذا كلّ شيء، قال زغيب. ويبدو أنّ كلّ أولئك الناس وجدوا أنفسهم عراة تماماً في نهاية السهرة، من أجل... أنت تفهم ما أرمي إليه، أهذا هو ما تودّ الحديث عنه؟ هذا هو، قال رافيل. هذه هي الأقاويل التي سمعتها مدبرةً منزلي في السوق. ألا تجد هذا مخزياً؟ المخزي ليس هنا، ردّ زغيب. أين هو إذن، تساءل رافيل مندهشاً؟ المخزي، قال زغيب بنبرة قاسية، هو أن تدعوني دائماً إلى سهرات مؤدّبة، بل مملّة، بصراحة، ثمّ تنساني في المرّة الوحيدة التي كان فيها شيء من المتعة. تسمرّ رافيل لحظةً، ثمّ استدار نحو السيدة ريفلو التي أحنت كتفيها أكثر قليلاً: ها هو اللوم الذي تجرّينه عليّ بقصصك هذه، قال لها فجأةً. ثمّ أخذ يضحك بقوة، وضحك زغيب في أثره، ثمّ صمّتا.

في ما تلا من وقت، لم يعد رافيل يدري ماذا يفعل. فلا

شيء يغويه حقاً، لا شيء يستحقّ العناء. وقد اشتدّ قلقه من الأمر حين طلبت إليه إيدا روبنشتاين وضع التوزيع الأوركسترا لي بعض مقطوعات «إيبيريا» لألبينيث، من أجل تحويلها إلى باليه تؤدّي هي نفسها رقصاته. وإيدا روبنشتاين فتاةٌ رائعة؛ فهي من ذلك النوع من الفتيات، الذي يمضي لصيد الأسود في إفريقيا حين يصيبه السأم؛ هي من تتصل بك منتصف الليل من أمستردام لتخبرك إلى أي حدّ، هذا الصباح، كانت الشمس التي شاهدتها من الطائرة، خلال عودتها من بالي، تشرق بأناقة فوق الأكروبول؛ ومن تُبحر على متن يَحْتَمِلُها إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية برفقة قرودها وفهدا المرؤّض، دون أن تنسى بيجاماتها الذهبية النسيج، وقلنسواتها التي تشبه قنزعة البلشون الأبيض، ولا صدريّاتها المرصّعة بالأحجار الكريمة. كانت إيدا روبنشتاين طويلة القامة، بالغة النحول، وبالغة الجمال، وبالغة الثراء، لا يمكن أن يُردّها طلب. هو مشروعٌ، في نهاية الأمر. هكذا هي الحال دائماً.

بدأ رافيل العمل، وبدا وكأنّ ذلك يعجبه إلى أن حلّ



الصيفُ وآن أوان الذهاب لفترة طويلة، كما في كل عام، إلى بلاد الباسك؛ إلى سان جان دو لوز، بالقرب من سيبور، مسقط رأسه، كي يلتقي صديقيه غوستاف سامازوي<sup>(1)</sup>، وماري غودان<sup>(2)</sup>. كان خواكين نين<sup>(3)</sup> هو من أخذه في سيارته الهوتشكيس لرؤية مصارعة الثيران، ولعب كرة الباسك، والاستحمام في البحر، وتناول فلفل اسبيليت<sup>(4)</sup> ونبيد ايريلوغي<sup>(5)</sup>. توقفا في أركاشون، حيث أخبره نين، وكان المساء قد حلّ وهما على رصيف الميناء، أنّ مشروع «ألبينيث» يطرح مشكلة تتعلق بالحقوق، نظراً لأنّ شخصاً يدعى آربوس قد سبق أن نفذ توزيعاً أوركسترياً لتلك المقطوعات. لا يهمني ذلك، قال رافيل بحدّة، ومن يكون آربوس هذا؟ غير أنّ هيئته لم تكن تظهر أنّه لا يبالي

(1) موسيقيّ وناقد فرنسيّ (1877-1967).

(2) (1879-1976) ابنة عائلة ارتبط رافيل بصداقات مع عدد من أفرادها. كانت مقرّبة من رافيل وتبادل معها الكثير من الرسائل.

(3) عازف بيانو ومؤلف موسيقي كوبيّ (1879-1949). كان صديقاً لرافيل وشاهداً على ولادة عمله الشهير «البوليرو».

(4) نوع مشهور من الفلفل الأحمر، عرفت به بلدة إسبيليت، في بلاد الباسك.

(5) نبيد فرنسي ينتج في قرية إيريلوغي الباسكية، في منطقة نافار السفلى.

بالأمر كما قال. حين رأي نين أنّ المسألة بدأت تقلق رافيل، استقصى الحقيقة من الناشر؛ فتيّن أنّ شبكة حصينة من الاتفاقيات والعقود والإمضاءات وحقوق المؤلف تحمي «اييريا» وأن لا أحد غير المدعوّ آربوس يملك الحقّ في التصرف في أعمال أليينث.

في سان جان دو لوز، استشاط رافيل غضباً، وكان متوتر الأعصاب، مكدرّاً: لقد أفسدَ موسمي، هذه قوانين غيبية كلّها. إنني أحتاج إلى أن أعمل، وكان التوزيع الأوركسترا لي لتلك المقطوعات يسليّني، ثمّ ماذا سأقول لإيدا؟ لسوف تفقد صوابها. على كلّ حال، سأعود إلى باريس غداً. لا أريد أن يفوتني الاحتفال بالرباع عشر من يوليو. لم يصدّق نين كلمةً واحدة من كلّ هذا. بالتأكيد، سيهرع رافيل إلى الناشر وإيدا لكي يسوّي الأمر. كان نين مخطئاً. فكّلما جاء الرباع عشر من يوليو، ثار حماس رافيل ونشاطه، فليس من الوارد أبداً أن يفوت حفلاً راقصاً واحداً. هكذا، كان يذرع أحياء باريس كلّها، ويترتّب عند مداخل كلّ المقاهي، إذ يحلو له أن يشاهد منها أزواج الرّاقصين المتلاصقين تحت الفوانيس، وسماع الفرق

الموسيقية، حتى تلك التي تتكوّن من عازف أكورديون وحيد.

في اليوم التالي، حين جاء نين ليصطحب رافيل من الفندق إلى محطة القطار، وجده مضطرباً، حائراً في غرفته التي عمّتها فوضى مرعبة، حيث اختلط على سريريه الحابل بالنابل: الحمالّات والأحذية والفُرَش وربطات العنق ومستلزمات الحّمّام وعلب السجائر، فيما القطار سيغادر بعد ربع ساعة. كان رافيل الذي انتهى أو يكاد من ارتداء ثيابه يريد، بأيّ ثمن، تمليس شعره، لكنّ نين قاده بحزم إلى السيّارة، وجمع في طريقة بعض المستلزمات التي كدّسها بسرعة في حقيبة. وصلا إلى المحطة في الموعد تماماً، دفع نين رافيل إلى القطار الذي بدأ انطلاقته، ثم رمى إليه من نافذة مقصورته، وهو يركض بمحاذاتها، الحقيبة التي لم تكن ثقيلة جدّاً، لحسن الحظّ.

لم يكن ذلك كلّه، في الجوهر، سوى إنذارٍ كاذب، فالعجوز آربوس، وقد علّم بالخبر، أبدى بكلّ لباقة استعداداه للتنازل لرافيل، الشاب الذي يصغره سنّاً، عن كلّ ما يشاء من حقوق، وفي هذا دلالةٌ على ما بلغه

الشاب من مجد بعد جولته في أميركا، الشاب الذي تخلّى فجأة، في نزوة من نزوات الشباب، عن هذا المشروع. غير أنّ الوقت داهم الناشر الذي كان قد التزم بالأمر، ويات بحاجة إلى قطعة موسيقيّة مكتوبة، في شهر أكتوبر. حسناً، قال رافيل، في نهاية المطاف، سأندبّر أمري وحدي. سأكتب القطعة بنفسني، وعندها سأنجز توزيع موسيقي بأسرع ممّا أفعل مع موسيقي الآخرين. وفي كلّ الأحوال، هي ليست سوى باليه؛ فلا حاجة لشكل، بالمعنى الدقيق للكلمة، أو لتطور اللحن، ولا حتّى للتّنعيم، نحتاج فقط للإيقاع وللآلات. ليس للموسيقى هذه المرّة أهميّة كبيرة. يبقى أن يبدأ العمل.

بعد أن عاد إلى سان جان دو لوز، ها هو على وشك المغادرة في الصباح الباكر إلى الشاطئ بصحبة سامازوي، مرتدياً ثوب حمّام ذهبيّ اللون، فوق مايوه سباحة أسود بحمّالات، ومعتماً طاقية سباحة قرمزية اللون. تلكاً للحظة خلف البيانو مكرّراً عزف جملة موسيقيّة بإصبع واحدة. ألا ترى أنّ ثمة ما هو مُلحّ في هذه التّيمة؟ توجه بالسؤال إلى سامازوي، ثمّ مضى ليسبح. وحين خرج من

الماء، وجلس على الرمل تحت شمس يوليو، عاد للحديث عن تلك الجملة. سيكون من الجيد صُنع شيء منها. بوسعه مثلاً أن يكرّرها أكثر من مرّة دون تطويرها، مكتفياً بتلويناتٍ أوركسترالية متدرّجة بأفضل ما يستطيع، أليس كذلك؟ ثم أردف قائلاً قبل أن ينهض ويعود للسباحة، لعلّ ذلك ينجح كما نجحت «لامادلون»<sup>(1)</sup>. بل سينجح أكثر، يا موريس، سينجح أكثر من «لامادلون» مائة ألف مرّة.

انتهت العطلة. ها هو جالسٌ خلف البيانو، وحيداً في بيته، أمامه مدوّنةٌ موسيقيّة، وبين شفّتيه سيجارة، وبتسريحةٍ شعريّةٍ بالغة الأناقة كالعادة. كان يرتدي، تحت ثوب نومٍ ببطانة فاتحة اللون، وجيبٍ باللون ذاته، قميصاً مقلماً بخطوطٍ رماديّة وربطة عنقٍ برونزية. كان في وضعٍ دوّزنة العازف لآلته، يده اليسرى على لوحة المفاتيح، بينما تسجّل يده اليمنى التي تحملُ قلمَ رصاصٍ آلياً معدنياً حُشر بين إصبعيه الوسطى والسبّابة، على المدوّنة، ما

(1) أغنية شعبية لحنها كامي روبر Camille Robert ولاقت رواجاً كبيراً في فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى.

تعزفه اليُسرَى. كان متأخراً في عمله كالعادة، وقد رنّ الهاتف للتو، حيث ذكره الناشر مرّة أخرى بأنّ الوقت يضيق، وأنّ عليه أن يحدّد على وجه السرعة مواعيد بروفات العمل المنتظر، الذي أعلنَ عنه ولكنه لا يعرف عن مصيره شيئاً. كان رافيل يبتسم، لكنّ ذلك لا يُرى. يريدون إجراء بروفات، هم يحرصون حقّاً على إجراء بروفات. حسناً إذن! سيجرون البروفات، سوف ينالون نصيبهم من البروفات!

ثمّ تناول عشاءه، كما يحدث عادةً حين يكون وحيداً، في مواجهة الحائط الذي تُبنت فيه الطاولة القابلة للطّي. كان طقم أسنانه، وهو يلتهم اللحم، يُصدر صوتاً كصوت الصّاجات أو كصوت رشّاش يدويّ في الغرفة الضيّقة. كان يأكل وهو يفكر في العمل الذي يقوم به. لطالما أحبّ الآلات والأجهزة الذاتية الحركة، وزيارة المعامل، والمشاهد الصناعيّة. إنّه يتذكّر تلك المشاهد في بلجيكا ومنطقة الراين حين كان يمرّ بها على متن نحتٍ نهريّ قبل عشرين عاماً، المدنّ التي تعلوها المداخن، والقُباب التي تقذف اللهب والأدخنة الحمراء والزرقاء، وقلاع صهر

الفولاذ والكاتدرائيات المتوهجة وسمفونيات أحزمة نقل الحركة، والصفارات، وضربات المطارق تحت السماء الحمراء.

ربما كان هنالك من أورثه هذا الميل إلى الميكانيك، فقد ضحى والدّه بالنّاي والبوق من أجل مسيرة مهنيّة كمهندس، قاده لأن يَخْتَرع -من بين أشياء أخرى- مولداً بخاريّاً يُسَخِّن عن طريق الزيوت المعدنيّة ويستخدم في وسائل النقل، ومحركاً فائق الضّغط، ثنائيّ الأشواط، ومدفعاً رشاشاً، وآلة لصنع الأكياس الورقيّة، وسيارةً ابتكر لها حركةً بهلوانية أسماها دوامة الموت. في كلّ الأحوال، كان هنالك مصنعٌ يقع على طريق فيزينيه، بعد جسر «روني» مباشرة، كان راقيل يحبّ مشاهدته في تلك الآونة، فهو يُلهمه بعض الأفكار: لقد كان يؤلف شيئاً ينتمي لنظام العمل المتسلسل الرّتيب.

سلسلةٌ وتكرار: انتهى من تأليف المقطوعة في أكتوبر، بعد شهرٍ واحدٍ من العمل عكّره زكامٌ شديد أصيب به خلال جولة في إسبانيا، تحت أشجار جوز الهند في مالقة. كان يدرك جيّداً ما الذي أنجزه: لا شكل له، بالمعنى

الدقيق للكلمة، لا تطور في اللحن، لا تنغيم، بل إيقاع وتوزيع فقط. باختصار، هو شيء يدمر ذاته بذاته، نوتة بلا موسيقى، صنع أوركستراي بلا مادة، انتحار، السلاح الوحيد المستخدم فيه هو مد الصوت، جملة مكرورة، شيء بلا أمل ولا يمكننا أن ننتظر منه شيئاً، ها هي على الأقل، قال، مقطوعة لن تجرؤ الفرق الموسيقية القليلة الخبرة على إدراجها في برامجها. لكن هذا كله بلا أهمية. لقد وضعت من أجل الرقص، سيكون تصميم الرقصات والإضاءة والديكور هو ما يسند تكرارات تلك الجملة. وبعدها أنهى العمل ذات يوم، وعند مروره بالقرب من مصنع فيزييه مع شقيقه، قال له: هل ترى، هذا هو مصنع «البوليو»<sup>(1)</sup>. لكن الأمور لم تجر على النحو المنتظر. فحين قدمت المقطوعة في رقصة للمرة الأولى، كانت مربةكة قليلاً، لكن الأمر نجح. أما النجاح الساحق، فقد جاء لاحقاً في الحفلات الموسيقية. كان نجاحاً استثنائياً، فالشيء الذي لا أمل منه حقق انتصاراً أذهل الجميع، بدءاً من مؤلفه

(1) المعزوفة الشهيرة التي تعد من أهم مؤلفات رافيل، وواحدة من أكثر معزوفات الأوركسترا أداءً في العالم.



ذاته. صحيحٌ أنّه في بدايات تقديم المقطوعة، صاحت في إحدى المرّات امرأة عجوز، في نهاية العرض بأنّ المؤلف مجنون، لكنّ رافيل هزّ رأسه قائلاً لأخيه: أخيراً، ها هي واحدة قد فهمت الأمر. وسيتهي به الأمر إلى القلق من هذا النجاح؛ فأنّ يحمّد مشروعٌ شديد التشاؤم نجاحاً شعبياً لن يلبث أن يصبح عالمياً لفترة طويلة، لا بل حتى واحدة من اللّازمات التي يردها العالم، هو أمر يدفع المرء للتساؤل، وخصوصاً لتوضيح الأمور. وقد ردّ فوراً على من غامروا بسؤاله عن العمل الذي يعدّه دُرّة أعماله: إنّه البوليرو، ولكّنه للأسف خالٍ من الموسيقى.

غير أنّ شعوره بشيءٍ من الازدراء تجاه هذه المقطوعة لا يعني أنّ علينا أن نستخفّ بها. فعلى العالم أن يفهم أيضاً أنّه لا يمكن العبثُ بحركته الموسيقية. فحين قام توسكانيني بتنفيذها على طريقته، أي أسرع مرّتين وبإيقاع متصاعد، جاء رافيل ببرودٍ لرؤيته بعد الحفل ليلفت انتباهه: هذه ليست حركتي. مال عليه توسكانيني، فاستطال بذلك وجهه الطويل أصلاً، وتغصّن جبينه المثلثُ الشكل: حين أعزف هذا، في حركتك، فإنّه لا يحدث أيّ تأثير. حسناً، لا

تعزفه إذن، ردّ رافيل. لكنك لا تفقه شيئاً في موسيقاك، قال  
توسكانييني وشاربه يرتعش، كانت تلك الطريقة الوحيدة  
لإيصالها للجمهور. حين عاد رافيل إلى البيت، ودون أن  
يخبر أحداً بما حصل، كتب رسالة إلى توسكانييني، لم نعرف  
ماذا قال له فيها.

حين استضافته جامعة أكسفورد، كان قد أنجز لتوّه  
ذلك الشيء في سلّم سي الكبير، الذي كان يجهل أنّه  
سيصنع مجده. ها هو يخرج من مسرح شلدونيان إلى فناء  
مكتبة بولديان، مرتدياً سترة ريدنغوت، وبنطالاً مخطّطاً،  
وحذاءه اللّماع، الذي من دونه لا يكون شيئاً، وربطة  
عنق، وقميصاً بياقة مقصوفة، وفوق كلّ هذا العباءة  
والقبعة، ضاحكاً وحريصاً على البقاء مستقيم الظهر ما  
أمكن، وقبضته مغلقتان، وذراعه تتدلّيان على امتداد  
جسده القصير. في الصورة يبدو أبله قليلاً. قبل ذلك  
بشاهي سنوات كان قد أثار ضجّة كبيرة برفضه وسام جوقة  
الشرف، لكنّ تلقّي درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة  
أكسفورد، مشفوعةً بالشناء باللغة اللاتينية، أمرٌ لا يُرفض.  
بعد ذلك، استحقّ الأمر أن يقوم بجولة صغيرة في إسبانيا

من أجل الراحة.

ذات مساء، راوده في الفندق شعورٌ مريحٌ لوجوده في سرقطة. كان وحيداً في غرفته، مسترخياً في أريكته قرب النافذة المفتوحة. خلع حذاءه، ومدَّ قدميه الحافيتين على المسند. أخذ يتأمل قدميه اللتين كانت أصابعه العشر، في طرفيهما، تنتقل من تلقاء ذاتها، وتتحرك فيما بينها كما لو كانت تومئ إليه، وترسل إليه علامات التضامن. نحن أصابعُ قدميك، نحن جميعاً هنا، إننا نعتمد عليك، وأنت تعلم أن بوسعك الاعتمادُ علينا كما على أصابع يديك<sup>(1)</sup>.

ظنَّ أن في وسعه الاعتماد عليها، لكنّه بعد يومين، حين أراد عزف مقطوعته «السوناتا الصغيرة»<sup>(2)</sup>، في سفارة مدريد، انتقل مباشرة من العرض إلى الخاتمة قافزاً عن حركة المينويه<sup>(3)</sup>. يمكننا أن نفسّر هذا الحادث كما نهوى. بوسعنا أن نعزو ذلك إلى نسيانٍ مفاجئ، أو أن نفترض

(1) يوظف المؤلف هنا المعنى المزدوج للفعل compter: يحسب أو يعدّ، ويعتمد على.

(2) Sonatine.

(3) بدأت المينويه Minuet في عصر الباروك كرقصة شائعة ثلاثية الوزن واستُخدمت لاحقاً في الفترة الكلاسيكية كحركة داخل سيمفونية أو رباعية وترية.

أنَّ تَكَرَّارَ عَزْفِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الْعَتِيقِ الَّذِي يَعُودُ إِلَى أَكْثَرِ  
مِنْ عَشْرِينَ عَاماً، وَعَلَى نَحْوِ مُتَوَاصِلٍ، هُوَ أَمْرٌ يَتَعَبُهُ.  
كَمَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَتَخَيَّلَ أَنَّهُ فَضَّلَ، أَمَامَ جُمْهُورٍ مُتَمَادٍ فِي قَلَّةِ  
انْتِبَاهِهِ، أَنْ يَنْتَهِيَ سَرِيعاً مِنْ أَدَاءِ تِلْكَ الْمَقْطُوعَةِ. وَقَدْ نَقُولُ  
لأنفسنا أيضاً إنه للمرّة الأولى، أمام الجمهور، ثمّة شيءٌ لم  
يعد ينجح.

التَّقْنِيَّة رقم 2: أن يبحث، مُتَقَلِّباً في الفراش لساعاتٍ،  
 عن الوضع الأمثل؛ عن التَّكْيِيف الأمثل لهذا الجسدِ  
 المُسَمَّى رافيل مع قطعة الأثاث المُسمَّاة سرير رافيل، عن  
 التنفس الأكثر انتظاماً، والوضعية الأمثل للرأس على  
 الوسادة، والحالة التي تجعل الجسد ينصهر ثم يمتزج  
 بالفراش، هذا الاندماج الذي من شأنه أن يفتح أحد  
 أبواب النَّعاس. عندئذٍ، ما على رافيل سوى أن ينتظر أن  
 يستولي هذا الأخير عليه، مترقباً وصوله مثل ضيفٍ .

اعتراض: من جهةٍ، وقد سبق أن رأينا ذلك، من شأن  
 هذا الانتظار نفسه، ووضع المراقب ذاك وما يستدعي  
 من انتباه -مهما اجتهدَ في تجاهله- أن يمنعه من النوم.  
 ومن جهةٍ أخرى، بعد العثور على ذلك الوضع، يحدث

أن يتعطل في كثير من الأحيان الخدرُ المشجّع الذي يعقبه  
موهماً باقتراب النَّعاس؛ فقد يقع تماسُّ لا ندرى في أيّ  
نقطة، وينبغي عندها بدء كلِّ شيءٍ من جديد. والأسوأ  
أنّه يجبُ إعادة كلِّ شيءٍ من نقطة الانطلاق الأبعد، وهذا  
أمرٌ مُحبط. أشعل رافيل مصباح السرير، ثم سيجارة، سَعَلَ  
قبل أن يسحقها، ليعاود إشعال أخرى على الفور وهكذا  
بلا نهاية.

ربّما يمكنه أن يجرب النوم مع شخصٍ آخر. فالتعاس  
يكون أحياناً أسهل عندما يكون المرء أقلّ وحدةً في  
السرير. كان يمكنه دوماً أن يقوم بهذه المحاولة. ولكن لا.  
لا فائدة. إذ لم يُعرف عنه أنه قد وقع في الحب يوماً؛ حب  
رجلٍ أو امرأة، أيّاً كان. نعرفُ أنه حين تشجّع ذات يوم  
وطلب من صديقة له الزواج منه انفجرت ضاحكةً بقوة  
وصارخةً أمام الجميع بأنّه مجنون. ونعرفُ أنّ هيلين، حين  
حاول معها، سائلاً إياها بصورةٍ مواربةٍ إن كان لا يروقها  
أن تسكنَ في الرّيف قد رفضت هذا العرض، بطريقة  
صحيح أنّها أكثر لطفاً ورقةً. ولكن حين عرضت عليه  
ثالثةً، طويلة القامة وضخمةً بقدر ما كان قصيراً ونحيفاً،

العرض ذاته، كان هو هذه المرّة من ضحك حتّى دمعت عيناه.

كما نعلم أنّ الشاب روزنتال قد وجدته ذات مرّة في حانةٍ عند باب شامبيريه، حيث كان لرافيل على ما يبدو علاقاتٌ ممتازة، أو على الأقلّ مفعمة ودّاً، مع بائعات هوىٍ اتّخذن من ذلك المكان مقرّاً عامّاً. ونعلم أنّ روزنتال نفسه استطاع أن يفاجئه أثناء مكالمته هاتفيةٍ مع إحداهنّ -عبّرت فيها عن غضبها الشديد لأنّ رافيل فضّل إعطاء درسٍ لروزنتال على أن يشاطرها، هي، سريره. ونعلم أنّه ذات يوم، مستأذناً ليريتز بالانصراف، أوضح له بلا اكتراث أنّه ذاهبٌ إلى بيت دعارة، لكنّه كان يمزح أيضاً. وبالتالي، فإنّنا نعرف القليل القليل من الأمور، مع أنّه يُمكننا أن نفترض بعضاً منها؛ مثل هذا الميل، الذي ربّما كان استسلاماً أكثر منه اختياراً، إلى العلاقات السريعة العابرة. باختصار، نحن لا نعرف شيئاً؛ لا شيء تقريباً؛ غير أنّه ذات يوم، أمام مارغريت لونغ التي شجّعتّه على الزواج، عبّر عن رأيه مرّة واحدةٍ ونهايةً حول مسألة الحبّ، فحكّم بأنّ هذا الشعور لا يرقى أبداً إلى ما يتجاوز الخلاعة.

فلنكف عن الحديث في هذا. مضى كل شيء على خير ما يُرام العام المنصرم في أوكسفورد، عند تسلّمه الدكتوراه الفخرية هناك، إلى درجة أنه دُعي إلى انجلترا مرّة ثانية. وقد تزامنت عودته إليها تقريباً مع عودة فيتغنشتاين من النمسا ليحصل، بدوره، على لقب دكتور ولكن من كامبردج وفي الفلسفة. وإذا كان هناك احتمال ضئيل بأن يكون رافيل قد قابل لودفيغ فيتغنشتاين<sup>(1)</sup>، فلا بد أن طريقيهما قد تقاطعا على الأقل. فبعد ثلاثة أسابيع، عرف رافيل، في فيينا، شقيق فيتغنشتاين الأكبر؛ بول، عازف البيانو الذي سجّنه الروس ثم نفوه إلى سيبيريا. وقد عاد من الجبهة فاقداً ذراعه اليمنى، فلم تحبّطه تلك الخسارة، وانكبّ، بصورة منطقيّة، على ما كان قد ألف حتى تلك اللحظة من موسيقى لتُعزف فقط باليد اليسرى، ولكن بما أن هذا المخزون كان محدوداً جداً: ريجير، سان سانس، وشوبرت (بتدوين لينست) وباخ (بتدوين برامس)، فقد خطر له أن يكلف مؤلّفين موسيقيّين من عصره للكتابة

(1) Ludwig Josef Johann Wittgenstein (1889-1951): فيلسوف نمساويّ ثمّ بريطانيّ الجنسيّة، له مؤلّفات معروفة في أصول الرياضيات وفلسفة اللّغة.



لهذه اليد. وكان رافيل قد صادف بول فيتغنشتاين أثناء حفل كان هذا الأخير يعزف فيه مقطوعةً موسيقيةً لريتشارد شتراوس، ألّفت خصيصاً لليد اليسرى. كان بول فيتغنشتاين عازف بيانو جيداً، على الأرجح، بوجه كبيرٍ ووسيم - وإن بدا متبلّداً- لكهلٍ أعزب، لا بأس به، ولكنّه أبعد من أن يكون بوسامةٍ أخيه الفيلسوف. تبادلوا «مرحباً»، و«تشرفت بمعرفتك»، وتوقّف الأمر عند هذا الحدّ.

بعد العودة إلى فرنسا، لم تكن الحال على ما يرام. واصل رافيل التدخين بإفراط كالعادة، وانتابه الضجر المعتاد، واضطراب النوم المعتاد، والشعورُ الدائم بإرهاق شديد، وباتت تعذبه بلا توقّفِ الالتهاباتُ العُقديّةُ المُزمنة ومُنغصاتٌ أخرى صغيرة. وعلى وجه الخصوص، لم يعدُ يعرف جيداً كيف يشغلُ نفسه بعد قصة البوليرو العجيبة. كانَ ثمةَ مشاريعٍ غامضةٌ تلوح في الأفق: فكرة قديمة لكونشيرتو، لكنّها تقليديّةٌ بعض الشيء، نيّةٌ ضعيفةٌ لتأليف أوبرا عن جان دارك، لكنّ ذلك مُرهقٌ جدّاً، محاولات لتأليف أوركسترا لي لكنّها لم تفضِ إلى شيء،

مسوذة لإعادة الاشتغال على «الملك رغماً عنه»<sup>(1)</sup>، لكنّ الأمر لم ينجح. من الأفضل إذن أن يسافر ثانية في إجازة استجمام، أن يقضي الصيف كلّه في بلاد الباسك، وأن يفكر بشيء آخر.

في نهاية الصيف، وبينما كان يقرأ في صحيفة «لو بوبولير» الأخبار غير السارة على شرفته، وصلت من التّمسا رسالة من فيتغنشتاين، يطلبُ منه فيها كتابة كونشيرتو لِّلَيْد التي بقيت له. وهنا، لا ندري ما الذي أصاب رافيل، إذ لم يكتبِ بقبول هذا التكليف وحسب بل، بدلاً من كتابة كونشيرتو، عزم في سرّه على أن يؤلّف اثنين في الوقت نفسه، الأوّل في سلّم ري الكبير (دي ماجور) والثاني في سلّم الصول، ما سيحقّق أحد مشاريعه الموسيقية القديمة. وإذا كان الأوّل مُخصّصاً لفيتغنشتاين، فإنّ الثاني سيكون له هو، لا لأحدٍ سواه: وفكر أنّه سيعزفه بنفسه. حتّى ذلك اليوم، لم يكن يُنتج سوى أعمالٍ متعاقبة، في نسخة واحدة، إنّها المرّة الأولى التي أراد فيها أن ينجب، بالتزامن، توأمين.

(1) أوبرا ساخرة كتبها إيمانويل شابريه Emmanuel Chabrier وقُدّمت للمرّة الأولى في 1887.

لكنهما سيكونان توأمين متغايري الأمشاج، فتاريخُ الميلاد هو ما سيجمع الشقيقين، وليس الشبه أبداً. بدأ بوضع الخطوط الأولى لـ «كونشيرتو في سلم الصول»، ثم وضعها جانباً كي يفِي بالمهمّة التي كُلف بها. وما إن انتهى، بما يكفي من سرعة، من العمل الخاصّ باليد اليسرى -منطقيّاً، في تسعة أشهر-، حتّى انكبّ على الكونشيرتو الآخر، لكنّ الأمر لم يكن يسيراً هذه المرّة، فقد تلقّاه رافيل، مواجهاً مشقّة كبيرة في العثور على طريقة لإتمام العمل. فالمسألة معقّدة، أليس كذلك؟ إنّها في غاية الدقّة؛ نظراً لأنّ هذا الكونشرتو ليس مكتوباً للبيانو بل ضدّه؟ حسناً، قال لزُغيب، بما أنّي لا أنجح في إتمام هذا الشيء من أجل اليدين الاثنتين، فقد قرّرتُ ألا أنام، ولو لحظةً واحدة، أترى؟ لن أرتاح إلّا حين يكتمل هذا العمل، سواء في هذا العالم، أو في العالم الآخر.

حين اكتمل العملُ أخيراً، بدأت مارغريت لونغ<sup>(1)</sup>

(1) عازفة بيانو ومدرّسة موسيقى فرنسية (1874-1966). ارتبطت بصداقة مهنية مع رافيل وكانت أوّل من أدّى عمله «كونشيرتو في سلم الصول»، عام 1932. وكتابها «على البيانو مع رافيل»، الذي صدر سنة 1973 بعد موتها، واحد من مصادر إشنوز في كتابة هذه الرواية.

-وقد أُبلغت بذلك على الفور، بفكّ شيفرته، ليس من دون مشقّة. فحين لم يكن رافيل واقفاً خلفها مُصحّحاً بلا توقّف، كان يَشغل بالها عبر الهاتف، بقيّة الوقت. كانت متردّدة، كما عبّرت له عن قلقها بشأن الحركة الثانية في مقطوعته، والصّعوبة التي سيلقاها العازف في أداء ذلك التقدّم البطيء، تلك الجملة الطويلة التي تناسب، كما قالت. «التي تناسب؟» من الذي ينساب؟ -أخذ رافيل يصرّخُ- لقد صُغت هذه الجملة مازورتين مازورتين<sup>(1)</sup>، وكِدْتُ أموت بسببها. حسناً، لكنّه، في المحصّلة، قد أنجز كلّ ذلك في غاية السرعة، إذ لم يستغرق الأمر أكثر من سنةٍ أو أزيد بقليل ليُنْتهي من مشروعه المُزدوج.

وحين قدّر رافيل أنّ مقطوعته «كونشرتو ليليد اليسرى» باتت جاهزة، دعا عرّابها إلى مونفور كي يعرض عليه ذلك الشيء. كان لبول فيتغنشتاين الهيئة الغامضة ذاتها: نظارةٌ صغيرةٌ وصدغان حليقان، وبنيةٌ جسديّة صلبة وصارمة، فيما طرفٌ كمّ سترته الأيمن الفارغ مدسوسٌ في جيبه.

(1) تشكّل العلامات الموسيقية، بما فيها إشارات الصّمت المحصورة بين الفاصلين، ما يُسمّى مقياساً أو مازورة. والمفردة الأخيرة عربها أهل الموسيقى من الإنجليزيّة *measure* أو الفرنسيّة *mesure*.

كان من حسن الحظّ أنّه لم يبقَ لتناولِ الغداء، فقد كان رافيل يُفكّر كيفَ سيُقطعُ له شريحة اللحم متوقّفاً أنّ نظرةَ خاطفةً من الضيف ستثنيه عن ذلك. اكتفيا بمناقشة نتيجة ذلك التكليف. وبعد أن عرض عليه تكوينَ الأوركسترا والجوّ الأساس لكلّ حركةٍ من الحركات الموسيقيّة، عزف رافيل بيديه الاثنتين، ليس بما يكفي من الجودة، الجزء المنفرد (الصّولو)، فوجد فيتغنشتاين بدايةً أنّ رافيل عزف بيانو رديء على الأرجح، وأمّا العمل نفسه، فلم يُخفِ، وهو الفخور أبداً بأنّه لم يتعلّم الكذب، أنّه يراه متوسّط القيمة. حاول رافيل أن يُخفي خيبة أمله بتقليب سيجارة غولواز، وتمسيدها مطوّلاً قبل أن يضعها في فمه، مستغرقاً كلّ الوقت الذي يحتاجه تدخينها في صمتٍ، ثمّ دسّ فيتغنشتاين مدوّنة المقطوعة في جيبه الأيسر، قبل أن يستأذن بالانصراف.

لكنّ هذا الجرح لم يكن سوى وخزة شوكٍ صغيرة. كان يرى جيّداً في ذلك الحين أنّ مجده يتوطّد، أنّهم يعزفون أعماله في كلّ مكان، وأنّ الحديث في الصحف لا يدور إلاّ عنه. بدا وكأنّه لم يسبق أن حدث شيء كهذا من قبل

قط - إلى حدّ دفع محرّر جريدة «باريس سوار» إلى القول إنّ في وسع مؤلّف مقطوعات الفالس الموسيقيّة النبيلة والعاطفيّة أن يفتخر بحقّ بأنّه أعاد الاعتبار لكلّ المقاعد الجانيّة الاحتياطيّة في قاعات الموسيقى. لقد احتلّ مكانة لا تقبل المنازعة، إلى درجة أنّها أثارت غضب المؤلفين الموسيقيّين الشبان، فبدأوا يثورون وموجهين له انتقاداتٍ لاذعةً على صفحات الجرائد، لكنّ هنا أيضاً بدا أنّه لا يكثرث للأمر. وذات مرّة، في حفلٍ باليه لداريوس ميّو<sup>(1)</sup> حضره بصحبة الشابّ روزنتال، صفق حتى أوجع راحتيه، فقد وجد الأداء غايةً في الرّوعة: برافو، مذهل، ومُبهر. ولكنّ، سأله جاره، ألا تعرف ماذا يقول عنك داريوس ميّو؟ إنّهُ يمضي وقته في ذمّك وشتمك. إنّهُ ليس مُخطئاً - أوضح رافيل - هذا ما يجبُ أن نفعله، حين نكون في سنّ الشّباب. في أمسيّةٍ أخرى مع هيلين هذه المرّة، في حفلٍ باليه ألفه جورج أوريك، وجده رافيل رائعاً أيضاً، وجميلاً إلى حدّ أنّه أراد التوجّه إلى المؤلّف ليثني عليه. ماذا؟ قالت هيلين، ستذهب لتهنئة أوريك بعد ما كتبه عنك؟ ولم لا، أجاب؛

(1) Darius Milhaud (1892-1974): مؤلّف موسيقيّ فرنسيّ.

حسناً، لقد كان مُصيّباً في انتقاد رافيل، لأنّه إن لم ينتقد رافيل، فسيقلّد أعماله. وكفانا رافيل واحد الآن!

وما دمنا في الأجواء الاحتفاليّة، فقد أقيم منتصف شهر أغسطس في سان جان دو لوز مهرجانٌ على شرفه، أُطلق فيه اسمه على الشارع الذي وُلد فيه. استعاد هناك البيانو الخاصّ به، وقميصه، وعاداته. سار الحفلُ بصورة جيّدة، وإن كان كلود فارير - بصوته الجمهوريِّ ولحيته البيضاء، وهيئته الأكاديميّة بصفته موظّفاً في البحريّة التجاريّة<sup>(1)</sup> - قد ألقى خطاباً مرتبكاً، كان رافيل، بكلّ الأحوال، قد انصرف قبّيله. خيرٌ لنا أن نذهب لتناول شراب الكرز، لا أريد أن أكون من السُّخف بحيث أحضر مراسم وضع اللافتة التي تحملُ اسمي. هذا ما قاله لروبير كاساسدو<sup>(2)</sup> مصطحباً إياه من ذراعه. بالمقابل، كان شديد الانتباه إلى مسابقة كرة الباسك التي كانت ستُختتمُ بها هذه الفعاليّة. وفي نهاية المسابقة، وقف مُرتدياً بذلته، حاسر الرّأس

---

(1) كان الكاتب الفرنسيّ كلود فارير Claude Farrère (1876-1957) ضابطاً في البحريّة فعلاً.

(2) Robert Casadesus (1899-1972): مؤلّف موسيقيّ وعازف بيانو فرنسيّ.

وسيجارة الغولواز في يده كالعادة، لالتقاط صورةٍ وسط أربعة لاعبين ضخام، ملاحظهم شريرة، يرتدون زياً أبيض ويعتمرون قبعات ألبيريه. هذه المرّة، في الصورة، كان هو الوحيد الذي يبتسم، أمّا العمالقة، فقد ظلّوا جامدين كالرّخام. ولاختتام ذلك اليوم، وفيما كان حفلٌ موسيقيّ تُعزّف فيه أعماله ويذهبُ ريعها لإحدى المؤسسات الخيريّة يوشك أن يبدأ، تأخّر رافيل كالعادة. انتظروه طويلاً، وحين وصل أخيراً، اكتشف مدعوراً أنّه قد نسي منديل الجيب الخاصّ ببذلته، وكانت هذه أيضاً مشكلة. اقترح عليه كاسادسو عبثاً أن يعيره منديله. فأجاب رافيل بأنّ ذلك مستحيل. بالطبع، كان ذلك مستحيلاً، فالمنديل لا يحمل حروف الاسم الأولى نفسها. ولكن في نهاية المطاف لم تكن تلك بالمشكلة الكبيرة؛ ذلك أنّهم، منذ اليوم التالي، اندسّوا في سيارة إدموند غودان، والد ماري، وكانت من طراز «هسبانو»، ومضوا ليشاهدوا، في حلّبات سان سباستيان، مصارعِي الثيران مارسيال لالاندا (قطع أذن الثور وانقسام الجمهور) وأنريكي توريس (تصفيق وصفير)، ونيكانور بيّالتا (صمت وصمت).



حين عاد إلى باريس، أثار ما وصل إليه من مجدٍ  
رغبته في مضاعفة العمل. فأثت، وقد تعب من الذهاب  
والإياب بين مونفور وباريس، استوديو صغيراً في  
بيت أخيه في لوفالوا، كي يعمل فيه. كان ليريتز هو من  
صمّم الديكور بأسلوبٍ يستلهم عالم البواخر من جهة،  
وديكورات عيادات الأسنان من جهة أخرى؛ أثاتٌ من  
النيكل ومقاعدٌ أنبوبيّة، بُسُطٌ دائريّة، منضدةٌ شرابٍ  
متنقلة، بكراسي عالية، خلّاط، كؤوسٌ كبيرةٌ وزجاجاتٌ  
من كلّ لون، ولا لوحاتٍ على الجدران، حتّى ولو مزوّرة  
مثلما هي الحال في مونفور، بل بعض النقوش اليابانيّة  
وصور فوتوغرافيّة لمان راي فقط. وعلى كلّ حال، فإنّ  
رافيل لن يظاً أرض هذا الاستوديو إلّالماماً.

قد يكون هذا التألّق أصابه أيضاً بشيء من الدوّار،  
فها هو رافيل، السّاخرُ عادةً والأقربُ إلى اللّامبالاة، قد  
بدأ يضلّ قليلاً. فوسط انشغاله التّام في الشّهور الأخيرة،  
وحثّى قبل أن يُنهيَ المقطوعتين التوأمين، خطّط للقيام  
بجولةٍ عالميّةٍ يعزف خلالها الكونشيرتو الذي كتبه ليدين  
اثتين - يديّه هو. أراد أن يقدّمه في كلّ القارّات. قارّات

العالم الخمس، ألح قائلاً لمن يريد أن يسمع: الخمس. لكنّ جسده ازداد ضعفاً في تلك الأثناء، وحين لم تتحسن الحال، تدخل الأطباء، ولقلقهم بشأن حالته الصحيّة، عارضوا بشدّة هذا المشروع. فلنهدأ! تحذيراتٌ وتشخيصات، فحوصٌ ووصفاتٌ وعلاجات، حُقنُ أمصالٍ وراحةٌ تامّة.

ليس لوقت طويل: فقد أصرّ، خلافاً لرأي الأطباء، على الانطلاق في جولةٍ لعزف هذا الكونشيرتو، ترافقهما مارغريت لونغ. وفي النهاية، ستكون هي من يؤدّيه، لا هو كما كان يأمل. هذا مع أنّه استمات في محاولة اكتساب براعة العزف المطلوبة، ممضياً السّاعات في إنهاك أصابعه، عاكفاً على دروسٍ ليست وشوبان كي يجوّد أداءه، ولكن بلا جدوى: كان عليه الاعتراف بأنّ موسيقاهُ تجاوزت قدراته هذه المرّة. لقد أصبحت فائقة التعقيد بالنسبة ليديه، اللتين ستكتفيان بقيادة الأوركسترا. توجّب السّفْرُ مع مارغريت إذن، وهذا ليس بالأمر السيئ من منظور العزف، لكنّه أقلّ ظرفاً بكثير من منظور الحياة، فمارغريت امرأةٌ مُستحيلة المعاشرة، متسلّطة، مُعتدّة بنفسها، من نوع

المرّيبة التي يجعلونها تلازمك في كلّ عطلة، ناهيك عن أنها بشعةٌ كالثبومة. ثم إنّ الجولة لن تشمل قارّات العالم الخمس، بل ستقتصر على أوروبا؛ ولكن في ما يزيد على عشرين مدينة. غير أنّ الأمر كالعادة، سينجح تماماً: من لندن إلى بودابست، ومن براغ إلى لاهاي. كان نجاحهما عظيماً، هو على المنصّة، وهي على البيانو، في كلّ مكان.

في القطار الموصل إلى فيينا، فعلّ ما كان قد فعله في شيكاغو، إذ انتبه إلى أنّه قد نسي أيضاً حذاء اللّماع: لا يمكن الظهور أمام الجمهور بدونه. ليست المسألة صعبةً إلى هذا الحدّ، ستجدُ مثله هناك، قالت مارغريت، غير مدركة أنّه لا يمكن العثورُ على حذاءٍ بمقاس صغيرٍ جدّاً في أيّ مكان. هذه المرّة لن تكون مغنيّةٌ مُخلّصةً، بل سائقُ القطار التّالي - بعد أن أبلغت باريس بالأمر - من سيتدبّر أمر استعادة الحذاء. في فيينا، دُعِيَ مع مارغريت إلى عشاءٍ كبيرٍ تبعته أمسيّةٌ على شرفهما في بيت بول فيتغنشتاين، عزف خلالها هذا الأخير - وهو من كلّف رافيل بالعمل وأهدى العملُ إليه - الكونشرتو بيده. بدأ العشاء مثل كلّ عشاءٍ من هذا النوع: في البداية يكون شيئاً مُملّاً بارداً

نخشاه؛ لكننا نتهندم من أجله، نصِل ونُقَدِّمُ لعددٍ كبيرٍ من الناس بالكذب نلتقطُ أسماءهم وسرعان ما ننساها، ويتملّكنا شعور قويّ بالملل، ثمّ نتقبّل الأمر، وننشطُ بمساعدة الكحول، حتّى إنّنا نبدأ بالاستمتاع قليلاً، وشيئاً فشيئاً، من حديثٍ إلى آخر، يغدو الأمر رائعاً بعد ساعةٍ أو اثنتين، ولا نعود مستعدين لمبارحة مقعدنا بأيّ ثمن.

باختصار، تسير الأمور دوماً بالطريقة ذاتها، غير أنّ مارغريت سمعت فيتنغشتاين يقول، في ذلك المساء، وكانت جالسةً إلى يمينه، إنه أضطرّ لإدخال بعض التغييرات على ذلك الكونشيرتو، الذي لم تكن هي تعرفه بعد. اقترحت عليه مارغريت، وقد افترضت أنّ إعاقة عازف البيانو قد قادت له لإجراء بعض التبسيطات، أن يُخبر رافيل، في كلّ الأحوال، بتلك التغييرات، لكنّه لم يصغ إليها. غادروا المائدة إلى قاعة الموسيقى. منذ بداية العزف، حيث كانت مارغريت تتابع الكونشيرتو من خلال مدوّنة النوتات، جالسةً هذه المرّة إلى جانب مؤلّفه، قرأت على وجه رافيل الذي كان يزداد امتقاعاً العواقب المؤسفة لمبادرات العازف الأقطع. ذلك أنّ فتغنشتاين لم يكن

قد بسّط العمل كني يتلاءم مع قدراته، بل بالعكس رأى فيه، لا بُدّ، الفرصة الملائمة لإظهار كم هو عازفٌ ماهرٌ على الرغم من إعاقته. فعوض أن يلتزم بالعمل ويبدل ما في وسعه لإخراجه بالشكل اللائق، ها هو يبألغ كثيراً، مضيفاً إليه توقعاتٍ نغميّةً سريعةً هنا، ومازوراتٍ هناك، ومُطرزاً إياه بزخارفٍ موسيقيّة، وأرجحاتٍ إيقاعيّةٍ ومحسّناتٍ أدائيّةٍ أخرى لم يطلبها منه أحدٌ؛ حلياتٍ لحنيةٍ من قبيل النوتات القصيرة التي تسبق النوتة الرئيسة أو تعقبها، ومسرّعاً بلا توقّف نحو النوتات العالية كي يُظهر كم هو بارعٌ وذكيّ، وكم احتفظ بلباقته، وكم يقول لكم جميعاً: إنني لا أبالي بكم. أمّا رافيل فقد شحّب وجهه إلى درجة البياض.

في نهاية الحفل، حاولت مارغريت من فورها، وقد خمنت أنّ مشكلةً ستقع، الالتفاف على ذلك بإثارة موضوعٍ آخرٍ مع السفير، ولكن لا فائدة. اقترب رافيل ببطءٍ من فيتغنشتاين، لم ير أحدٌ على وجهه مثل تلك الملامح منذ أن اقترب من توسكانييني. ولكنّ هذا ليس جيّداً - قال برود. ليس جيّداً أبداً. ليس هكذا هو الأمر

أبدأ. انظر- قال فيتغنشتاين وقد أراد الدِّفاع عن نفسه-  
أنا عازفٌ قديمٌ وبصراحةٍ فإنَّ المقطوعة بما هي عليه لا  
تُحدث أيَّ صدى. أمّا أنا، فمؤلّفٌ أوركستراليٌّ قديمٌ  
وأستطيع أن أقول لك إنّها تحدث صدىً جيّداً، أجب  
رافيل وقد غدا أكثر عدائيّة. أمّا الصّمت الذي خيّم على  
القاعة إثر هذه الكلمات فقد كان صدها أكبر: شعور  
بالضّيق تحت التّوءات الزخرفيّة، ارتباكٌ لدى طبقات  
الجُبس، قمصانٌ بذلات السّموكن شحبت، وحواشي  
التياب الطّويلة تجمّدت، ونُدلّ الفندق أخذوا يتفحصون  
أحذيتهم. ارتدى رافيل معطفه من غير أن ينطق بكلمةٍ  
وغادر المكان قبل الأوان، جازاً وراءه مارغريت التي  
تملّكها الاضطراب. كانوا في فيينا، ذات ليلةٍ من ليالي  
يناير، والطقس رديء، ولكن لا يهمّ. أعاد السيّارة التي  
وضعتها السفارةُ تحت تصرّفه، مراهناً على المشي قليلاً في  
الثلج كي يهدأ. وعاد إلى الفندق ماشياً.

في اليوم التالي، ظلّ على القدر ذاته من التوتر وهو  
ينتظر قطار العودة، يده اليمنى مُنشغلةٌ بسيجارة الغولواز  
بينما اليسرى، التي ترتدي القفاز، تدعك لا شعوريّاً

القفاز الأيمن. لحظة المغادرة، على رصيف المحطة، كانت مارغريت تفتش في حقيبتها بعصبية متزايدة ووجهها أخ في الشحوب. غمغمت وأصابعها تتشابك في قاع الحقيبة هذا سخيف! إنني لا أجدها. فسألها رافيل بنبرة خلّت من اللطف، ماذا؟ ما الذي لا تجدينه؟ التذاكر، قالت مارغريت، لا يمكن أن تكون في مكان آخر، لا بدّ أنّها هنا، ولكن لا، أين وضعتها يا ترى. إنك حمقاء حقاً! مارغريت، قال رافيل ببرود وقد بدأ يتوتّر. معتوهة، أكّ قائلاً بهدوءٍ وهو يطوي الصحيفة أربع طيّات. أخذت مارغريت ترمشُ وقد أجفلتها هذه القسوة المفرطة التي لم تعتدها منه. ولكنّه استمرّ فيها مع ذلك. لقد أضاعت التذاكر هذه السافلة، غمغم لنفسه، لا بدّ أن تنسى على الدوام شيئاً ما. ها هي! قالت أخيراً مارغريت، وهي تُظهر تذاكر السفر المُثبتة في فراء يديها: لقد وضعتها هنا زيادةً في الحرص. مستعيداً على الفور بروده وهدوء النسبيين، استغرق من جديد في صحيفته من دون أد يُبدّي أيّ اهتمام بمرافقته التي كانت تقول تفاهاتٍ رسمية الطابع، فيما ترمقه بنظراتٍ خاطفةٍ وقلقة. حتّى إنه .

يلتفت لآرثر روبنشتاين<sup>(1)</sup> الذي جاء لاهثاً، وقد أُبلغ في اللحظة الأخيرة بوجود رافيل في فيينا، فوصل راكضاً، على أمل أن يُصافح المعلم قبل مغادرته؛ لكن المعلم صعد إلى القطار وكأنه لم يكن موجوداً.

ومع ذلك، كان من الأفضل أن تكون مارغريت هي من يهتمّ بأمور التذاكر، لأنّه عادةً ما ينسى كل شيء: مواعيده، وأحذيته اللامعة، وحقائبه، وساعته، ومفاتيحه، وجواز سفره، وينسى بريده في جيبه، الأمر الذي قد يتسبّب في بعض المشاكل؛ فرافيل كان يُستقبل في كل مكان، ويحظى بالكثير من الحفاوة، والدعوات من أصحاب النفوذ، لكنّه اعتاد أن يُبقي في سترته الدّعوات الرسميّة التي يهملها، فينتظرونه ولكن عبثاً. لم ينزعج ملك رومانيا من ذلك كثيراً، لكنّ رئيس الوزراء البولندي جعل منها قصّة طويلة: إشكالات دبلوماسية، ودُعراً لدى قناصل فرنسا، وتدخّلات من السّفراء. لطالما نسي كل شيء، لطالما كان شارد الذهن، ودائماً ما عانى من ثغرات في

---

(1) آرثر روبنشتاين Arthur Rubinstein (1887-1982): عازف بولندي ثمّ أمريكيّ الجنسية، من كبار عازفي البيانو في القرن العشرين.



ذاكرته بخصوص أسماء الأعلام، لاجئاً في أحيان كثيرة إلى الصّور كي يُشير إلى مكانٍ أو شخصٍ يعرفه جيّداً مثل مدام ريفلو: السيّدة التي تعتني بيّتي، كما تعرف، سيّئة الطّباع تلك. وحتىّ مارغريت نفسها: تلك التي لا تجيد عزف البيانو، تعرفُ عمّن أتكلّم، وزوجها مات في الحرب. ومع علم مارغريت بكلّ هذا إلّا أنّها وجدت أنّه صار ينسى الأشياء أكثر فأكثر. من جهتها، كانت هيلين قد لاحظت العام السابق أنّ رافيل يُبدي، من وقتٍ لآخر، نوعاً من الغيابِ حتّى عن الموسيقى التي يؤلّفها.

لكنّه مع ذلك، لم يكن ينسى ما يُعدّ الأهمّ في نظره: فمنذ عودته إلى فرنسا، عارضَ صراحةً مجيء فيتغنشتاين الذي كان يريد، بكلّ ثقة، القيام بجولةٍ صغيرة في باريس. فوجّه إليه رسالةً مُختصرةً وصف فيها أداءه بالتّزوير، وطلب إليه بلهجةٍ أمريةٍ وقاطعةٍ أن يلتزم منذ تلك اللّحظة فصاعداً التّزاماً صارماً بعزف عمله كما هو مكتوب بالضبط. وحين ردّ عليه فيتغنشتاين وقد شعر بالإهانة، بأنّ العازفين لا ينبغي أن يكونوا عبيداً، أجابه رافيل بكلمتين: العازفون عبيد.

ها هو يبلغ السابعة والخمسين من العمر. كان قد اختتم منذ ثلاثة عشر عاماً مؤلفاته لآلة البيانو بعمله «ديباجة»<sup>(1)</sup>، وهي مقطوعة لا تتعدى خمس عشرة مازورة، ولا تتجاوز مدتها دقيقتين، ولكنها لا تتطلب أقل من خمس أيادٍ لتأديتها. لقد صفى حسابَه مع قالبِي السوناتا والرباعيَّة. وبعد أن ذهب بقدرته على التوزيع الأوركستراي إلى أقصاها في عمله البوليرو، إلى حدِّ المجازفة بتحطيم لُعبته، ها هو قد انتهى من حلِّ مشكلة الكونشيرتو، وهي المشكلة الوحيدة التي كان قد تأخر في مواجهتها. فما العملُ الآن؟ حسناً، في ذلك الحين، كان أمامه مشروعان: الأول موسيقى لفيلم عن دون كيخوته، كان يُفترض أن يخرجَه بابست<sup>(2)</sup> ويقوم فيه شاليابين<sup>(3)</sup> بدور الشخصية التي يحمل عنوانَ الفيلم اسمَها، فيما يكتب حواراته بول مورون. أمَّا العمل الآخر، والذي كان يحمل في تلك اللحظة العنوانَ

(1) *Frontispice*.

(2) غيورغ فيلهيلم بابست Georg Wilhelm Pabst: مخرج وكاتب سيناريو ومنتج نمساوي (1885-1967).

(3) فيودور شاليابين Feodor Chaliapine: مغني أوبرالي وممثل روسي كانت لديه أيضاً موهبة كبيرة في الرسم (1873-1938).

الرّمزي «متاهة 39»<sup>(1)</sup>، فإنّنا لا نعرف عنه سوى ما تطوّع  
رافيل بقوله ذات يوم لمانويل دي فايّا<sup>(2)</sup>: كان يفترض أنّ  
يكون هذا طائراً من سلّم سي.

---

(1) *Dédale 39*.

(2) Manuel De Falla مؤلّف موسيقيّ إسباني (1876-1946). ارتبط  
بصداقة مع رافيل خلال إقامته في باريس من 1907 إلى 1914.

باريس، في ليلة من ليالي أكتوبر، الساعة الواحدة فجراً. أمام مسرح الشانزلزيه، كان السائق جان ديلفيني، ببشرته الشديدة الحمرة وقبعته الباهتة، قد أقلّ للتوّ زبوناً في سيارته الديلاهاي 109. أخبره الزّبون بالعنوان: فندق أثينا، 12 شارع أثينا. وانطلقت السيارة، لم تكن المسافة بعيدة. أخذ الزّبون الذي جلس في الكرسي الخلفي يتأمل الطرقات التي تتعاقب تحت ناظره، ثم ألقى نظرة نحو السائق الذي كان يفصله عنه ساترٌ زجاجي، ما لبث أن توقف عن تأمل المشهد، مستغرقاً في فكرةٍ خطرت له. كانا على وشك الوصول، هبطت السيارة شارع أمستردام، ثم اتجهت شمالاً عبر شارع أثينا حيث ظهرت فجأةً وبسرعة، من التقاطع، سيارةٌ أجرةٍ أخرى، من طراز رينو سلتاكاتر،

يقودها سائقٌ اسمه هنري لاسيب، تميل بشرته إلى الصفرة ويعتمر قبعة بمرتبات.

كان الاصطدام الجانبيّ عنيفاً جداً، فتحطم زجاج السيارة الداخلي بفعل الصدمة وتحول إلى نصل ذي حدّين، وأوشك أن يشطرَ الرّاكب رافيل إلى نصفين. لكنّه لم ينجح تماماً في ذلك، مكتفياً بدقّ ثلاثة من ضلوعه، فأحسّ بقوة أنّ صدره قد انخسف مثل حذبة معكوسة الاتجاه، وبكسر ثلاثٍ من أسنانه، بينما تكفّلت بعض شظايا الزجاج بتمزيق وجهه، لا سيّما الأنف وقوس الحاجب والذقن. توجهوا لأقرب صيدليّة، حيث ضمّدت جراحه مؤقتاً، قبل نقله إلى مشفى بوجون الذي تركه يعود إلى فندقه، بعد خياطة جروحه. ولكن في اليوم التالي، وقد بدا أنّه يعاني من رضوضٍ داخليّة، فضّل طبيبه أن يرسله إلى عيادة في شارع «بلوميه» كي يخضع للمراقبة.

في الشهور الثلاثة التالية، لم يفعل رافيل أيّ شيء البتّة. كانوا يعالجونه ويضمّدون جراحه ويداوونه، كما أصلحوا له طقم أسنانه. كانوا يعتنون به عنايةً فائقةً فيما ظلّ هو مشدوهاً. كان كلامه قليلاً ولم يشكّ من شيءٍ قطّ، إلّا

أنه كان يلاحظ، من حين لآخر، أن فكره يخونه أحياناً، ولا يتّضح دائماً على النحو المعهود. صحيح أنه كثيراً ما كانت تبدو عليه في ما مضى علاماتُ الشroud، لكنّها باتت تتكرّر بوتيرة أكبر. كانوا يجلبون له عند استيقاظه صحيفة «لوبوبولير»، التي كان يقرأها بتمعّن حتى تلك اللحظة، كلّ صباح من أولها إلى آخرها، ولكن يبدو أنه بات أقلّ اهتماماً بها من ذي قبل، إذ صار يُلقي على الصحيفة نظراتٍ متحفّظة، مكتفياً بتقليبها. وبما أنه عمل كثيراً في الأعوام الأخيرة، لم يتوقّف الأطباء عن تحذيره من أن حالته لن تتحسن نظراً لإرهاقه المزمن. والحقيقة أنّها أخذت تتدهور على نحوٍ خطير بعد هذا الحادث. وقد أوضح أخيراً أثناء خضوعه لمختلف الفحوص، أنّ أفكاره، أيّا كانت، تبدو له دوماً حبيسة دماغه. كان هذا أمراً طبيعياً على كلّ حال، بعد صدمة كتلك. وقد شاء المعتيون افتراض أنه سيتجاوز ذلك. فأخضع لمزيد من الفحوص؛ فحوص بلا جدوى. كما نصحه جميع أقاربه بعلاجات مختلفة وكان كلّ واحد منهم يؤكّد أنّ العلاج الذي يقترحه هو الأفضل: الكهرباء، الحقن، التنويم

المغناطيسي، الطبّ التجانسي، العلاج الطبيعي، الإيحاء، علاوةً على كثير من العقاقير التي يحارُّ المرء بينها، ولكن، على ما يبدو، لم يجد شيئاً من هذا كله نفعاً.

بانقضاء تلك الشهور الثلاثة، وفي الوقت الذي عاد فيه العنيد فيتغنشتاين إلى باريس، بدا أنّ حالة رافيل قد تحسّنت بعض الشيء؛ لا بل بدا أنّه تصالح مع الأقطع -إلا أنّ يكون الأمر لم يعد يعنيه في آخر المطاف- ذلك أنّه وافق على قيادة أوركسترا سيمفونيّة باريس في الحفل الذي قدّم فيه الآخر، في قاعة بلييل، الكونشرتو الذي كان يمتلك حقوقه الحصريّة لمُدّة ستّ سنوات. غير أنّ ذلك لم يدفع فيتغنشتاين -المنحني تماماً على آلة البيانو، وكمّه الفارغ مدسوسٌ في جيبيه، كعادته- إلى الامتناع عن تجميل التوزيع الموسيقيّ على هواه. فقد استمرّ في تجاوزاته، باحثاً عن تأثيراتٍ تُظهر براعته، مُضاعفاً الزخرفات والاهتزازات، مجمّلاً عباراتٍ موسيقيّةً لم تطلب تدخلاً من أحد، وكانت يده اليُسرى تصرّ على الشّرد إلى يمين لوحه المفاتيح، حيث لا شيء تفعله هناك، أما رافيل، اللامبالي في الظاهر إزاء ذلك، فكان مُتشبهاً بحامل النوتة

الموسيقية، مُنظماً الإيقاع، وكما في كلِّ مرة حين يقود الأوركسترا، مُرتبك الحركات بعض الشيء. لم يبدُ عليه أنّه حاضرٌ تماماً؛ بل يمكننا القول، بالنظر إلى أنّ العصا في يُمناه كانت تنتقل إلى يده اليسرى حين يقلب صفحةً من المدوّنة، أنّه لم يكن يحفظُ مقطوعته غيباً.

استمرّ شعور رافيل بالتعب المُفرط، فعاد ثانيةً إلى سان جان دو لوز في إجازة، إذ دائماً ما تتحسن الأحوال حين يعود إلى موطنه. كان المحيط يمتدُّ مُثائباً، والسَّماءُ الهائلة تتوسطها شمسٌ خالصة، وسامازوي وماري غودان حاضرَين لاستقباله. إلّا أنّ كلَّ شيء بدأ ينهار خلال ذلك الصيْف تحديداً. فها هي بعض الأفعال الاعتيادية، التي كان يقوم بها في الأصل بحيويّةٍ ومن دون تفكير، قد أخذت تفتُر، وتباطأ، وتفتقر للدّافع. ففي الكتابة مثلاً، بدأ وكأنّ رافيل، الذي كان شديد العناية بشكلها وأسلوبها، يجد صعوبةً في خطِّ الكلمات، حتّى حين ينحصر الأمر في إعداد قائمة التسوّق. وذات أحد، في حلبة مصارعة الثيران، وبصحبة عائلة غودان، فتش طويلاً في جيوبه



عاجزاً عن أن يشرح للآخرين عمّ كان يبحث تحديداً،  
و حين أخرج إدمون سيجارة من جيبه، انتزعها منه على  
الفور: هذا ما كنت أريد. وهناك أيضاً الشاطىء، الذي  
كان يجب الانطلاق منه، وهو السباح الماهر، في مغامرة  
نحو البعيد، لكنّه لاحظ أنّه لم يعد قادراً على القيام ببعض  
الحركات في الماء. فقد أصبحت مختلفة، وتأخذ مجرى غير  
متوقّع. وكان على شاطىء المحيط أيضاً أن اختلّت حرّكته،  
حين أراد أن يعلمّ ماري فنّ الزّلاج<sup>(1)</sup>، فأصاب الحجرُ وجهه  
صديقتّه.

بعد ثلاثة أيام على هذا الحادث، أصرّ بعناد على العودة  
للسباحة في المحيط، فغاب عن أنظارهم في عرض المياه،  
مخاطراً بحياته، فلمّا لحقوا به وجدوه عائماً على ظهره،  
تاركاً الماء يجرفه بانتظار النّجدة. وحين أخرجوه من هناك  
وسألوه عن حاله، ردّ، ببساطة، بأنّه لم يعد يعرف كيف  
يسبح. أمّا الأطباء الذين احتاروا في أمره، فقد اقترحوا  
عليه أن يكمل إجازته في منطقة أكثر برودة، أن يستبدل  
مثلاً بحر المانش بالمحيط الأطلسي؛ فشواطىء الشمال

---

(1) قذف الحجر بحيث يتقاذف على سطح الماء باستواء.

أكثر إنعاشاً، حسب رأيهم. تمّ تدبُّر أمر دعوته إلى توكيه،  
وبالفعل، في غضون شهرٍ بدا أنّ كلّ شيء يسير نحو  
الأفضل. وصار بوسعه العودة.

ربّما تحسّنت الحال قليلاً، لكنّه لاحظ جيّداً أنّ خطّه  
في الكتابة يزداد سوءاً، أنّه يفقد أناقته ويغدو مهزوزاً  
وأحرق، وفي طريقه لأن يصبح عصياً على القراءة. وفي  
سعي الشرياليتين بجِدِّ، آنذاك، إلى الإثارة، خطر لهم أن  
يدعوا بعض المشاهير للمشاركة في واحدة من نوادرهم  
الاحتفاليّة: هذه المرّة سيجمعون بصماتٍ أيدي عددٍ من  
الشخصيّات المعروفة ويطلبون من خبيرٍ التعليق عليها.  
كان هنالك شخصيّاتٌ مختلفة، من دوشان<sup>(1)</sup> إلى هكسلي  
ومن أندريه جيد إلى سانت إكزوبيري. ومع أنّ بريتون  
كان متشكّكاً إزاء الموسيقى إلى حدٍّ بعيد - هذا إن لم يكن  
لا يفقه من أمرها شيئاً - فقد حرص على مشاركة رافيل،

---

(1) مارسيل دوشان Marcel Duchamp (شاع اسمه بالعربية على هيئة  
«مارسيل دوشامب»)، خلافاً لنطق اسمه بالفرنسية) (1887-1968):  
رسّام فرنسيّ ثمّ أمريكيّ الجنسية، كان له تأثير كبير على الحركيين  
الدادائيّة والسرياليّة، ويُعدّ من أكبر رسّامي القرن العشرين. والكتاب  
الثلاثة المذكورون في العبارة ذاتها معروفون.

المؤلف الموسيقي الوحيد الذي وقع عليه الاختيار. وكان رافيل، الذي بدا معافى، مسروراً جداً لمشاركته في هذا الحدث. فوصل مُبتسماً، بشعره المَسْرَح بعناية فائقة كما كان عليه دوماً، وبذلته الرمادية الداكنة الثنائية الأزرار، العين مُتقظة والخطوة رشيقة، متأثراً بحضوره أمام السرياليين الذين يثيرون لديه اهتماماً أكبر ربّما كما كان يبدي. تقدّم راضياً للعملية، فبسط الخبيرُ يدي رافيل على طبقة رقيقة من سخام الدخان ثم على ورقة صفحة بيضاء، وانتهى الأمر.

ولكنّه في الواقع لم ينته تماماً، إذ كان على كل شخص أن يوقع على بصمته الخاصة، وحين جاء دور رافيل وقدموا له حاملة الريشة، صدرت عنه حركة تنم عن التراجع. لا أستطيع، قال ببساطة، لا أستطيع التوقيع. سيرسل أخي لكم توقيع غداً، ثم التفت نحو فالتين هوغو التي كانت ترافقه: هيا يا فالتين، لنغادر بسرعة. خرج بصمته تحت المطر الغزير، واستقلّ على عجل سياراً الأجرة، التي مضت مبتعدة، فيما بقيت فالتين على الرصيف. تبادل السرياليون النظرات، أما الخبير - كانت خبيرة بالأحرى،

وهي السيّدة الدكتورة لوت وولف - فقد احتُفِظ بتعليقها، وكان غايةً في الغباء.

بعد فترة بسيطة، انتهز المنتج كانيّتي فرصة وجود الرباعيّ غاليمير<sup>(1)</sup> في باريس ليقتَرَحَ على شركة بوليدور تسجيل مقطوعةِ رافيل الموسيقيّة الرباعيّة<sup>(2)</sup>، وقد أبلغ هذا الأخيرَ بأنّه سيكون في غاية الامتنان له إن حضر للإشراف على الجلسات. حسناً، موافق، قال رافيل. جلس في غرفة التحكم، وحضر التّسجيل دون أن يبدي رغبة في قيادة العازفين. وسواء استحسن ما كان يسمعه أم لا، فإنّه كان يعبّر عن ذلك من بعيد. هذا جيّد، يقول أحياناً، وأحياناً أخرى، هذا أقلّ جودة، أو ينبغي الإعادة. كان يوضّح بعض التفاصيل، ويصحح خروجاً بسيطاً عن المقياس أو سرعة الإيقاع. وبعد كلّ حركةٍ موسيقية يُسمعونه تسجيلها، كانوا يقترحون البدء من جديد إن كان يرغبُ في ذلك، ولكن بما أنّه لم يكن يرغب كثيراً

---

(1) فرقة رباعية وترية شهيرة أسسها عازف الكمنجة الأميركي من أصل نمساوي فيليكس غاليمير Felix Galimir (1910-1999) وحملت اسم عائلته.

(2) *Le Quatuor*

في الإعادة، فقد أنهاوا كل شيء خلال فترة ما بعد الظهر. وما إن انتهى الموسيقيون من مهمتهم، وأخذوا يوضّبون آلاتهم في حافظاتها، ثم يوضّبون أنفسهم في معاطفهم، حتى التفت رافيل نحو كانيّتي: لقد كان عملاً جيّداً، جيّداً حقاً، هلاًّ ذكّرتني باسم المؤلف؟ لسنا مضطّرين لتصديق هذه الحكاية.

خضع لفحوص جديدة لم تُظهر وجود علة عضويّة ظاهرة، فأرسل ليستجّم في جبال سويسرا. كان يعرف مثل تلك الجبال، حيث كان قد أمضى بعد الحرب شهراً في مصحّ ليعالج من إصابة بمرض الشّل، من دون أن يشار أبدأ إلى المرض بهذا الاسم، وكانت الوصفة للتغلب عليه آنذاك حمّامات الشمس. أمّا هذه المرّة، فحمّام الماء الساخن مع عصارة الثنوب. كان يفترض أن يكتب رسالة إلى العائلة دولاج، أصدقائه الذين كانوا ينتظرون كلمة منه، لكنّ القلق بدأ يتتأبهم حين تأخر وصولها. ولما تسلّموها أخيراً، سافروا إلى سويسرا للقاء رافيل الذي كان عليه أن يفسّر لهم ما حدث: لقد احتاج ثمانية أيام كي يكتب تلك الرسالة، حيث اضطرّ إلى البحث عن كل كلماتها في

قاموس «لاروس» ليتمكن من نسخها.

إلى هنا وصلت به الحال. لم تُجدِ الإقامة في سويسرا نفعاً. وصار يحدث أيضاً، حين يذهب إلى حفل يُقدّم فيه واحدٌ من أعماله، أن يسأل إن كان حقاً من تأليفه أو -وهذا ليس بأفضل- أن يهمسَ لنفسه: كان عملاً جميلاً. وبما أنه بات يعرف أنه لم يعد يستطيع كتابة اسمه، فقد صارَ حين يُقبل بعض الشبان نحوه عند الخروج من الحفل طامعين إلى الحصول على توقيعِه، وأقلامهم تلمع كالسلاح، يعبرُ من وسطهم تحت حماية هيلين مثل رجلٍ آليٍّ، دون أن يبدو عليه أنه يسمعهم أو يراهم، متألماً بسبب هذه الهيئة المتعالية، الساخرة، والمُصطنعة من أجل حمايته، أكثر من ألمه النَّاجم عن وغيه بمرضه. مؤخراً، وإذ لم يعد قادراً على أن يحبَّ شيئاً سوى العزلة، صار يمضي ساعاتٍ على شرفته في مونفور، في أريكة، ونظرةً شاردّة نحو الوادي الذي كان منظره هو ما دفعه إلى المجيء والاستقرار هناك. كانت هيلين تنضمّ إليه، قلقّة بشأنه، وتسأله لم هو هناك. فيردُّ ببساطة بأنه ينتظر، لكنّه لا يحدّد أيّ شيءٍ ينتظر. كان يعيش في ضبابٍ يخنقه كلّ يوم أكثر قليلاً، على الرّغم من

أنّ هنالك نشاطاً واحداً لم يبارحه: كان يذهب كلّ يوم للمشي طويلاً في الغابة. ولا يضيع فيها أبداً. كان العالم وأشياؤه هو ما يضيع منه. ذات مساء في عشاءٍ مع ناشره، التقط شوكته بأسنانه، وانتبه لذلك فوراً، فنظر بحزنٍ إلى مارغريت التي كانت بجانبه.

باختصار، لم يكن بخير البتّة. قلقت إيدا روبنشتاين بشأنه وتدخلت في الأمر. لم يكن ما تتّصف به إيدا من كرم بأقلّ مما تتّصف به من طولٍ ورشاقةٍ قدّ وجمال، وكان هذا الكرمُ كافياً لكي تحكم بأنّ على رافيل السّفر لتغيير الجوِّ، وتقرّر التكفّل بالأمر. ستكون الرّحلة التي تنظّمها له رحلةً كبيرة إلى إسبانيا ثمّ إلى المغرب، وسيكون ليريتز من سيرافقه. فلننطلق. في طنجة، بدا أنّ الأحوال تتحسنّ. وفي مراكش، خلال ثلاثة أسابيع، كان يجوب الأسواق في كلّ الاتجاهات دون أن يتوه، تماماً كما لم يكن يتوه في غابة رامبوييه، ثمّ عند العودة إلى الفندق، ينجح في كتابة ثلاث مازورات موسيقيّة أمام ليريتز الذي استعاد الأمل. كان يلقي الحفاوة دائماً وأينها مرّ، إلى درجة الاحتفاء به من دون قصد، مثلما حدث في ذلك اليوم، حين سمع، على ما

يبدو، عامل تلغراف يصفر لحن البوليرو وهو يشق طريقاً لنفسه، وسط بحر من الدراجات الهوائية. لسنا مضطربين إلى تصديق هذا أيضاً. أما في فاس، فقد استقبله المقيم العام الذي اقترح عليه، وقد اصطحبه لزيارة المدينة، أن يستلهم أجواءها. آه، قال رافيل، لو ألّفت شيئاً بالعربيّة، فسيكون عربياً أكثر من كلّ هذا. كان ليريتز يخبر إيدا روبنشتاين بكلّ شيء عبر البطاقات البريدية التي يرسلها، وهي، من جهتها، تهاتفها كلّ يوم. كان ليريتز يؤكّد أنّ الأمور على ما يرام: يبدو رافيل سعيداً جداً بهذا الاستقبال. إنّه يعمل قليلاً، حتّى إنّه كتب رسالة إلى أخيه. أراد ليريتز أن تكون أخباره مُطمئنة، لكنّ رافيل في الواقع كان لا يزال واهياً من التعب، برّماً بكلّ شيء، لا يتكلّم إلّا نادراً ويشعر أكثر من أيّ وقت مضى بأنّه خارج العالم، لا سيّما وأنّ هذه الوجهة من العالم كانت تعجُّ بالغبار والضوء والحركة. صحيح أنّ رافيل بدأ، مرّة أخرى، أفضل حالاً أثناء عودته عبر إسبانيا، إلى درجة أنّه حين حضر جنازة دوكاس التفت نحو كوشلان وطمأنه قائلاً: لقد دونتُ تيمةً موسيقيّة، ما زال بوسعي أن أوّلّف الموسيقى. لكنّ



هو من لَسْنَا مضطرين لتصديقه هذه المرّة.

لسنا مضطرين لذلك، لأنّ الأمور تسارعت وزادت سوءاً: بات يصعب عليه التحكّم بأغلب حركاته، فقدّ حاسة اللمس، ولم يعدّ يعرف، تقريباً، كيف يكتب أو يقرأ، وصار يعبّر عن نفسه بصورةٍ أسوأ، إذ يخلط بين الكلمات على الدوام، ويعجزُ أكثر فأكثر عن العثور عليها. أمّا في الموسيقى، فإنّ كان قد ظلّ قادراً على الغناء أو العزف من الذاكرة، أو على تمييز ما يُسمعونه إياه من أعمالٍ موسيقيّة، إلّا إنّهُ لم يعد بمقدوره أن يقرأ نوطه موسيقيّة ولا أن يفكّ شفرتها على البيانو. ناهيك عن أنّ التوم لم يعد يزوره.

تقنية رقم 3: أن يفرض على نفسه تعداداً ما؛ أن يتذكّر مثلاً كلّ الأسرة التي نام فيها منذ ولادته. إنّها مهمّة كبيرة، وقد تستغرق وقتاً طويلاً. ففي كلّ مرة يجد أسرةً جديدةً في ذاكرته، وهذا يأخذ وقتاً كثيراً إلى درجة أنّه يغدو مُملّاً -ويمكنه الاعتمادُ على هذا الملل كعاملٍ مساعدٍ على النوم. اعتراض: إنّ هذا الملل يمكن أن يُبقي رافيل في حالة تيقظ، ويدفعه لأن يطرح أسئلة مُباغته، تُبقيه متأهباً. كما يحدث أيضاً أن يُسيءَ التفاوض، كأن يتملّكه أحياناً خمولٌ

ينبغي أن يستسلم له، لكنّه على العكس تماماً لا يفعل. إنّ رغبته في النوم من القوّة بحيث تجعله يترقّب بقلقٍ حلولّ النّعاس، حتّى إذا أحسّ بأنّه قريب. وهذا الانتباه المرصّي يمنع مجيء النّوم في اللحظة التي يكون فيها على وشك الوصول. وعندها، ينبغي بدء كلّ شيء من جديد. ذلك أنّ المرء لا يستطيع أن يفعل كلّ شيء في الآن ذاته، أليس كذلك؟ يحدّث الأمر ذاته دوماً، إذ لا يمكننا النّوم ونحن نراقبُ النعاس.

على آية حال، لقد كانت صحته هشةً على الدوام، فمن التهاب الصفاق إلى السل ومن الأنفلونزا الإسبانية إلى التهاب القصبات الهوائية المزمن، لم يتمتع جسده المتعب بالقوة في يوم من الأيام، حتى وإن كان مُتصبباً مثل الألف، مشدوداً في بذلاته المضبوطة القياس تماماً. ولا كانت روحه قوية كذلك؛ كان غارقاً في الحزن والسأم وإن حرص على ألا يظهرهما، وعاجزاً أبداً عن أن ينسى نفسه في النوم، الذي حُرّم عليه أن يزوره. ولكن الأمر مختلف الآن. فهو لم يُعُدْ يستطيع العثور على مشطه الموضوع أمامه على منضدة الزينة، ولم يعد يعرف كيف يعقدُ ربطة عنقه وحده، ولا يفلح في تزيير كُمّيه من دون مساعدة. كانوا يحاولون الترويح عنه، فيصطحبونه، ما أمكنهم

ذلك، إلى حفلاتٍ موسيقيّة، لكنّه كان يبقى مُتلاشياً في أريكته، ساكناً وهادئاً، وكأنّه لم يعد هناك، كأنّه ميتٌ مُسبقاً. حين عاد توسكانييني إلى باريس، نجحوا في إقناع رافيل بالذهاب لسماعه يقودُ الأوركسترا في أداءٍ أحدِ أعماله. ذهب على مَضضٍ، وبدا متأثراً حين هللوا للأوركسترا وقائدها، ولكنّه، قابلاً في مقصّورته، رفض الذهاب لتَهتة توسكانييني. وحين تعجّبوا وتأسّفوا لعدم ذهابه ليعبّر عن سروره، فيمحو بذلك الخلاف القديم حول البوليرو، أجاب رافيل: كلاً، فهو لم يرِدْ قطّ على رسالتي. وعند الخروج من المسرح، اقترب منه زوجان، ذكره وجهاهما على نحو غامض بشيء ما ولكن ما هو؟ أستاذنا العزيز، قالوا، هل تتذكّر حين عزفتَ مقطوعة «دافني»<sup>(1)</sup> على بيانو منزلنا، قبل سنوات قليلة؟ نعم، نعم، قال رافيل بصوتٍ فقد جرسه، وبلا تصادٍ مع فكره، وحتى دون أن يعرف من هما.

ولكن على الرغم من أنّه لم يعد يعرف كثيراً من الناس، فإنّه كان يعي كلّ شيء. كان يرى جيّداً أن حركاته تُخطئ

.Daphnis (1)

أهدافها، أنه يمسك بالسكين من نصلها، ويقرب عقب  
السيجارة المشتعل إلى شفتيه، ثم يُصّح نفسه سريعاً، في  
كلّ مرة، هامساً لنفسه: لا، ليس هكذا. كما كان يرى جيّداً  
أنّ الأظافر لا تُقلّم بهذه الطريقة، وأنّ النظارات لا توضع  
بهذا الاتجاه، وأنه حين يرتديها بهذه الصّورة محاولاً قراءة  
جريدة «لوبوبولير»، فإنّ عضلات عينيه لا تُمكنه حتى من  
متابعة الأسطر. كان يلاحظ كلّ ذلك بوضوح: السقوط  
الذي هو فيه فاعلٌ ومتفرّجٌ يقظٌ في الوقت نفسه، مدفوناً  
حيّاً في جسده الذي لم يعد يستجيبُ لذهنه، ومتأملاً  
شخصاً غريباً يحيا فيه.

لكنّ ما يحدث لي أمرٌ مأساوي، يقول لما رغريت.  
فتجيبه دوماً: الصبر، سوف تجتاز ذلك، ثم انظر إلى  
فيردي، لقد اضطرّ إلى انتظار أن يبلغ الثمانين عاماً لكي  
يؤلّف «فالستاف»<sup>(1)</sup>. وحين يظلّ على حُزنه، تُذكره بأنّه  
حتى إذا لم يُعد بوسعه إنتاج أيّ شيء، فإنّ أعماله حاضرةٌ  
على كلّ حال. لقد أنجز أثره، تُكرّر على مسامعه، وهو  
كثيرٌ ورائع. ولكن كيف يمكنك قول هذا؟ يقاطعها

---

(1) Falstaff.

يائساً، إنني لم أكتب شيئاً، ولم أخلف شيئاً، ولم أقل شيئاً  
مما أردتُ قوله.

هو وحده في بيته في مونفور، بلا أوهام، لقد كان  
وحيداً فيه دائماً، ولكن متشبهاً بالموسيقى. قد ضاق أخيراً  
ذرعاً بحياته العديمة الفائدة، غاضباً، بلا جدوى، من  
كونه لم يعد ينفع بشيء، ومن كونه محبوساً داخل ذاته.  
وبعد أن أدرك أن الأمر قد انتهى، حاول أن ينظم عزلته.  
صار يعود كل يوم، بعد أن يتجول مشياً في غابة رامبوييه  
التي لم تمنعه حالته قط من معرفتها عن ظهر قلب، ليمضي  
ساعاتٍ بالقرب من الهاتف منتظراً، على أمل تلقي مكالمة  
من إدوار الذي تجبره أعماله في أغلب الأوقات على البقاء  
بعيداً عنه، ومواصلاً التدخين بلا توقف على الرغم من أنه  
ممنوع من ذلك، ثم يقوم ليُفرغ منفضة السجائر، وليست  
المنفضة المليئة برماد السجائر بأقل حزنًا من السرير الذي  
لم يُرتب. ولكن عند الخامسة من مساء كل يوم أيضاً،  
كان يتلقى زيارةً من جاك دو زُغيب. ما إن يقرع زُغيب  
الجرس، حتى يهرع رافيل نحو الباب محاولاً فتحه. وبما أنه  
لم يعد شيء في جسده يعمل، فقد أخذت أصابعه الرخوة

تذهب بالمزلاج، بحركاتٍ متقطّعة، في كلّ اتّجاه، وبالقفل في الاتّجاه الخطأ، إلى أن يستسلم ويقنع بمناداة مدبّرة المنزل. كان زغيب يسمع من خلال الباب لعناتِ رافيل التي تزداد سخطاً والتي تردّ عليها صيحاتِ السيّدَةِ ريفلو الهائجة، إلى أن تفتح أخيراً درفة الباب.

يأخذُ زغيب رافيل من ذراعه، ويعبران إلى الصّالة الحمراء والرماديّة. يتّخذ مكاناً له على الأريكة فيما يتمدّد رافيل في الكرسيّ الواسع بالقرب من النافذة. ويدور الحوارُ ذاته كلّ يوم. كيف حالك؟ يسأل زغيب. سيّئة، يقول رافيل بصوتٍ خافت، الحال على ما هي عليه دوماً. وحين يسأله الآخر عن نومه، يجيبه رافيل بإيماءٍ من رأسه تفيد بأنّه لم ينم. والشهية؟ يتابع زغيب. الشهية؟ نعم، إلى حدّ ما، يجيب بفتور. وهل عمّلت قليلاً؟ يهزّ رافيل رأسه مرّة أخرى، وفجأةً تغيم عيناه بالدّمع. لم يحدث هذا لي؟ لا يجيب زغيب. وبعد لحظاتٍ من الصّمت: لكنني كتبتُ أشياء لا بأس بها. أليس كذلك؟ زغيب لا يجيب. يبقى زغيب برفقة رافيل حتّى الثامنة وفي اليوم التالي، عند الخامسة مساءً، يعود ليطرح الأسئلة ذاتها. كانت النهاراتُ

كلها تمرّ على هذا النحو إلى أن يحلّ الليلُ فيثيرُ سؤالَ النومِ.

تقنيّة رقم 4: بروميد البوتاسيوم، لودانوم، فيرونال، نيمبوتال، بروميناي، وسونيريل<sup>(1)</sup>. ومهدّئاتٌ أخرى.

اعتراض: بعد أن كانت الأدوية المنومة قد خدمته كثيراً، لم تعد تساعدُه إلا قليلاً، فمفعولها لم يعد كبيراً، في الحقيقة. ومع ذلك، كان راقيل ينتهي أخيراً بالسقوط في النوم مع خيوط النهار الأولى. لكنّ هذه الهدنة لم تكن سوى نوم سيئ، تشوّشه أحلامٌ عداويّة، لا تترك له أيّ فرصةٍ للراحة، إذ يكون عليه خلالها أن يواجه وحوشاً أو، ما هو أسوأ بعدُ، أن يهرب منها؛ فيفزّ مستيقظاً فجأةً في اللحظة الأسوأ من تلك المعارك، خائراً، ومنهكاً، في كلّ مرّة أكثر من عشية اليوم السابق، لا بل بمزاجٍ أكثر كدرأً، أو بلا مزاج البتّة!

أخيراً، وبعد أن استغرق الأمرُ زمناً طويلاً، قدّم في حضوره عرضٌ لعمله «كونشرتو للبيد اليسرى» بصيغته الأصليّة، بعد أن خلّصه جاك فيفرييه أخيراً من زخرفات

(1) أسماء أدوية مسكّنة وعقاقير مهدّنة ومنومة.



فيتغنشتاين. أثناء الحفل، مال رافيل مرّة أخرى على جارته لكي يسألها هل أنّ ما يستمعون إليه هو حقاً أحد أعماله. هذه المرّة كان لديه ظرفٌ مُخفّف، إذ لم يكن سبق له أن سمعه بهذه الصّيغة. لكنّه حين حضر بعدها بثلاثة أشهر حفلاً مُخصّصاً لأعماله المكتوبة للبيانو بدا أنّه لم يتنبّه إلى أنّ التّصفيق في نهاية الحفل كان له. لا بدّ أنّه فكّر أنّ المعنيّ بذلك التّصفيق الحادّ هو زميله الإيطاليّ الذي يجلس إلى جانبه، لأنّ رافيل التفت إليه، بلباقة، بابتسامةٍ آليّة، ونظرةٍ جوفاءٍ تثير الخوف. ثمّ اصطحبوه إلى العشاء، فتبع حركتهم من دون أن يقول شيئاً: كان شبهاً أنيقاً الهندام كعهده، إلّا أنّ مدام ريفلو، تحسباً لأيّ طارئ، شكّت في ياقة سُترته بطاقةً تحمل عنوان بيته.

بالطبع، كان لا بدّ من فعل شيء. فلم تنقطع اجتماعاتُ المقرّبين منه للتداول في الأمر، وعبثاً جابت إيداروبنشتاين سويسرا وألمانيا وإنجلترا كي تجمع آراء المختصّين، الذين أقرّوا بحيرتهم أمام حالته. وحين استشارت في باريس رائدّي جراحة أعصاب الدّماغ، عارض أحدهم فكرة الجراحة، أمّا الآخر فقد أعلن باختصار أنّه ما كان ليُقدّم

على آية محاولة لو تعلق الأمر بأيّ كان، وما كان ليفعل شيئاً سوى تتركه على حاله ولو كان في ذلك ضياعه للأبد. ولكنه رافيل! وفي المرحلة التي وصل إليها، يجدر أن نحاول القيام بشيء. يُمكننا افتراض أن نجاح العملية الجراحية قد يعيد له قدراته، وقد يمنحه سنواتٍ من الإبداع الجديد. وعلى الرغم من نتائج الفحوص، التي ظلت محطّ شكّ، فإنّ فرضية وجود ورم لا تزال قائمة، وعليه، ينبغي القبولُ بإجراء الجراحة. كان كلوفيس فانسان جراح أعصابٍ ذائع الصيت، ولا يمكن إلاّ الوثوق به. فأخذوا برأيه، وحددوا موعداً للقاءه بعد يومين.

وبما أنه كان ينبغي حلق رأس رافيل قبل العملية، فقد سعى إدوار والآخرون لطمأنته، لأنّه حين رأى شعره يتساقط، توسّل إليهم أن يعيدوه إلى البيت. فحاولوا إقناعه بأنّ الأمر لا يتعدّى إجراء صورة شعاعيةٍ أخرى، وبعض الفحوص المتقدّمة التي ينبغي أن يخضع لها، غير أنّ رافيل لم يُصدّق شيئاً من ذلك. كلاً - قال بهدوء - أعلمُ جيّداً أنهم سيقطعون رأسي. وحين غطّوا رأسه بقماشٍ أبيض، بدا أنّه قد تقبّل الأمر، وكان هو أوّل من ابتسم

للشبه غير المتوقع بينه وبين لورانس العرب.

بأيدٍ عارية، قصّوا بمنشارٍ صندوقَ جُمجمته كي يعزلوا الجزء الأمامي الأيمن منها، الذي سحبوه، ثم فتحوا الأمّ الجافية<sup>(1)</sup>، بالعرض، كي يروا كيف تجري الأمور في الدّاخل، فوجدوا أنّ الجزء الأيسر من الدّماغ منخسفٌ قليلاً لكنّه طبيعيٌّ على الأرجح، من دون وجود أيّ شكل خاصّ من الارتخاء، وإنّ كانت تلافيفُ الدّماغ، التي لا تُعاني من ضمور شديدٍ هي الأخرى، متباعدةٌ عن بعضها البعض بفعل الاستسقاء<sup>(2)</sup>. وإذ لم يجدوا أيّ ورم، قاموا بِبَزْلِ القَرْنِ البُطينيِّ لاستخراج بعض السائل، الذي لا يظهر إلاّ بالضغط على المنطقة المعنيّة. فحقنوها بالماء عدّة مرّاتٍ على أمل أن تتمدّد. كان الدماغ ينتفخ لكنّ الانتفاخ سرعان ما يزول. وبدا أنّ الضّمور الدماغيّ نهائيّ. باختصار، لم يحدث أيّ تقدّم. فاستسلموا، وأعادوا غلق

---

(1) إحدى السّحايا الثلاث، وهي أبعدها عن مادّة الدماغ والنخاع وألصقتها بصندوق الجمجمة، تتألف من غشاء ليفيّ سطحيّ.

(2) ينجم مرض الاستسقاء الدماغيّ عن تجمع السائل الشوكيّ في التجاويف الدماغيّة بكميات أكبر من الحجم الطبيعيّ ممّا يؤدي الى ارتفاع ضغط الدماغ وبالتالي انضغاط الخلايا العصبيّة وتوزّمها وموتها في النهاية.

فُتِحَ الحَقْنُ ثَمَّ، تاركين الأمَّ الجافية مفتوحة، ردّوا الجبهة  
الأماميّة إلى وضعها، وخاطوها بخيطة بُتّي.

بعد العمليّة، وحين استعاد رافيل وعيه لِلْحظّةِ،  
اعتقدوا أنّه تجاوز الخطر. تناول بعض الطعام، طلب  
حضور إدوار، ثمّ طلب أن يرى سيّدَةً بعينها. فسألوه  
أية سيّدَةٍ؟ واقترحوا عليه أسماء يصعبُ عليه لفظها. إيدا  
روبنشتاين؟ فأشار أن لا، بإيلاءٍ من يده نحو الأرض.  
هيلين جورادن مورهانج؟ لا. مارغريت لونغ؟ كلا،  
أشار بالإيلاء ذاتها. أخفَضَ، قال أخيراً، أخفَضَ. فهموا  
المقصود في النهاية، واستدعوا السيّدَةَ ريفلو. غطّ في النوم  
ثانيةً، وتوفّي بعدها بعشرة أيّام، ألبسوا جسده ثوباً أسود،  
بصُدْرَةٍ بيضاء، وياقّةٍ جامدةٍ مقصوصةٍ الزوايا، وربطةٍ  
عنق «الفراشة» بيضاء اللون، وقفازين شفّافين. لم يخلف  
وراءه وصيّةً، ولا صورةً فيلميّةً ولا أيّ تسجيلٍ بصوته.



## نبذة عن المؤلف:

يُعتبر جان إشنوز من أكبر مجدّدي الكتابة الروائيّة في فرنسا في العقود الأخيرة. ولد عام 1947 في مدينة أورانج الفرنسيّة، لأب طبيب نفسيّ وأمّ رسّامة. ولدى إنّهائه الدراسة الثانويّة، بدأ بدراسة الكيمياء، ثمّ انعطف إلى علم الاجتماع، فالموسيقى، ثمّ عقد العزم على ممارسة الكتابة الأدبيّة. نشر حتى الآن ثماني عشرة رواية، وكتب للسينما عدداً من السيناريوهات. فاز في 1983 بجائزة مديسيس عن روايته «شيروكي»، وفي 1999 بجائزة غونكور عن روايته «أنا راحل». ينشر له مشروع «كلمة»، ترجمة لثلاثة كتب صاغ فيها بلغة روائية سيّرت ثلاثة من أعلام العصر الحديث وهم: المؤلف الموسيقيّ الفرنسيّ موريس راقيل «راقيل»، والعداء التشيكيّ إميل زاتوبيك «عدو»، والمخترع ومهندس الكهرباء الصربيّ-الأمريكيّ نيكولا تسلا «بروق».

## نبذة عن المترجم:

وليد السويركي شاعر ومترجم أردني من أصل فلسطيني، مواليد 1967، عمل مدرساً للأدب الفرنسي في جامعة اليرموك (الأردن) من 1996 إلى 2008. صدر له عدد من الترجمات الفكرية والأدبية منها: «اللائظام العالمي الجديد»، «لتزفيتان تودوروف»، 2005، و«بعيداً عن البشر»، «لباسكال ديسان»، 2007، و«طردت اسمك من بالي»، «لأومبرتو أكابال»، 2010. وصدّر له ترجمة كتاب «أساتذة اليأس»، لنانسي هيوستن، مشروع «كلمة»- أبوظبي، 2012.

## راقيل

كان يدرك جيداً ما الذي أنجزه، لا شكل له، بالمعنى الدقيق للكلمة، لا تطوّر في اللحن، لا تنغيم، بل إيقاع وتوزيع فقط. باختصار، هو شيء يدمر ذاته بذاته، نوتة بدون موسيقى، صنيع أوركستراي بلا مادة، انتحار، السلاح الوحيد المستخدم فيه هو مد الصوت، جملة مكرورة، شيء بلا أمل ولا يمكننا أن ننتظر منه شيئاً... وبعد ما أنهى العمل ذات يوم، وعند مروره بالقرب من مصنع فيزيئي مع شقيقه، قال له: هل ترى، هذا هو مصنع «البوليرو».

لكن الأمور لم تجر على النحو المنتظر. فحين قدمت المقطوعة في رقصة للمرة الأولى، كانت مربكة قليلاً، لكن الأمر نجح. أما النجاح الساحق، فقد جاء لاحقاً في الحفلات الموسيقية. كان نجاحاً استثنائياً، فالشيء الذي لا أمل منه حقق انتصاراً أذهل الجميع، بدءاً من مؤلفه ذاته.

المعارف العامة

الفلسفة وعلم النفس

الديانات

العلوم الاجتماعية

اللغات

العلوم الطبيعية والتفيدة / التطبيقية

الفنون والألعاب الرياضية

الأدب

التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

أساطير وناشئة



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة  
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

